كتاب الحجّة

ممّا دوّن يحي بن عون رضي الله عنه

(توفي 298/ 911-910)

بسم الله الرحمان الرحيم

{ السنّة و البدعة}

[حظر تأويل القرآن بغير ما فسّره به النبي]

أمّا بعد، فإنّ الله شرّع لنبيّه محمد - صلّى الله عليه وسلّم !- شرائع الهدى، وانزل عليه الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد[1]، لا يعوّج فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب، ومن التمس الهدى في غيره يضلّه الله. فَقَبِلَهُ عن الله ودعا إليه عباده. فسارع إليه المسارعون، وسبق إليه السابقون من أصحابه، فكانوا الذَابِين عن حرمة الإسلام، القائمين لله بهد[ى] الأحكام، المبينين لمن بعدهم وَضَحَ الأعلام، وما في التنزيل ممّا حُظِر عن الناس تأويله.

وكان الرسول - صلّى الله عليه وسلّم !- المبيّن لما انزل الله إليه - عن الله - المفسّر من كلام الله، المبيّن لأمّته[2]. فَحُظِرَ تأويل الكتاب عنها. إلّا بعلم سابق وتأويل متقدّم من النبي المصطفى، و من أصحابه العالمين بما ارتضى. فأمّا من أراد تأويل كتاب الله على تأويل الحكايات عن الآراء المختلفة، والأهواء المتصرّفة، حتّى يردّوا كتاب الله إلى قول الأعراب في البوادي و الفيافي والقفار، يزعمون انّه التأويل و الدين، وأنّ بقولهم يفسّر كتاب ربّ العالمين، فهذا كلام المارقين وللحقّ مفارقين. فالعلماء هم المنار، لأنّ الطريق إذا لم يكن بها منار، يوشك[3] الآخذ فيها [من التـ][4]جار، يمينا وشمالا لا يعرف وَضَحَ الطريق.

---

1 - سورة فصّلت 41، الآية 42.

2 - يمكن أن تُقرأ هذه الجملة قراءة أخرى على هذا النحو: « وكان الرسول - صلّى الله عليه و سلّم !- المبيّن لما انزل الله إليه - عن الله المفسّر - من كلام الله المبين لأمّته. » وهذا لا يغيّر من جوهرها.

3 - أوشك: أسرع في السير.

4 - ذهب طرف الورقة فسقط منها ما بين المعقوفين.

[العقل نعمة يوشك أن يكون حسرة]

واعلموا أنّ العقل نعمة، وأنّه يوشك أن يكون حسرة. فَرُبَّ ذي عقل قد أشغل عقله بالتعمّق فيما هو عليه ضرر، [ولَهَا][1] عن الانتفاع بما يعلم[2] حتّى صار عنه ساهيا كأنّه لا يعلمه. ومن عقل الظر[يف][3] ترك النظر فيما لا نظر فيه حتّى لا يكون فضل عقله وبالا عليه ...[4] في ترك مناقشة من هو دونه في الأعمال الصالحة.

[الخروج عن الميراث طريق البدعة]

ورجلٍ شغل قلبه ببدعة، قلّد دينه فيها رجلا دون أصحاب محمد - صلّى الله عليه وسلّم !- واكتفى برأيه فيما لا يؤثر الهدى إلاّ فيه، ولا يرى الضلال إلاّ في تركه، فزعم أنّه أخذها عن القرآن، وهو يدعو إلى فراق القرآن. أفما كان للقرآن حَمَلَةٌ قَبْلَهُ[5] ؟! وإنّما القرآن إمام لرسول الله، ورسول الله إمام لأصحابه، وأصحابه أيمّة لمن بعدهم فيما أخذوا عن نبيّهم، فصار ذلك ميراثا يرثه الآخر عن الأوّل، رجال معروفون، مسمّون في البلدان كلّها، متفقون في الردّ على أهل الأهواء.

[في مهامه الضلالة]

وقد تسمّت كلّ فرقة برئيس ضلالتها، غير إمام في الدين ولا معروف في المسلمين. فتهاوت[6] بهم أَدِلاَّئُهم في مهامه مضلّة، فضلّوا فيها، فأمعنوا متعسّفين في تيههم، متحيّرين في طريقهم، يتردّدون، يقودهم من أمامهم الإعجاب، يفتنهم ويحفّزهم من خلفهم شيا[طين][7] ريائهم، ليس لهم منار يهتدون به، ولا عِلم ينتهون إليه. يَرِدون مختلفين/، ويَصْدُرون متحيّرين، كلّما احدث لهم الشيطان شبهة في ضلالتهم انقلبوا منها إلى مثلها، فلا ينتهون منها إلى غاية، ولا يرجعون عنها إلى جماعة. اشتبهت عليهم الأمور، فلم يقفوا عندها لا يعلمون، ولم يَتَثَبَّتُوا[8] فيها بقول، ولم يطلبوا آثار الماضين، ولم يقتدوا بالمهاجرين.

أعاذنا الله وإيّاك من شرّهم.

1 - محي ما بين المعقوفين من طرف الورقة.

2 - في الأصل: يجهل، وهو خطأ لا يستقيم به السياق.

3 - سقط ما بين المعقوفين من طرف الورقة.

4 - الخطّ متواصل بالأصل، غير أنّ اضطراب السياق يفيد أنّ هناك ثغرة.

5 - يمكن أن نقرأ أيضا: « قلبه».

6 - في الأصل: فتهوت، وهذا الفعل وزن تفعّل غير مأثور. وتهاوى القوم، تساقطوا في الهاوية.

7 - محي ما بين المعقوفين من طرف الورقة.

8 - في الأصل: يتثبون.

[السنّة أحقّ أن تبلّغ]

فسنّة رسول الله - صلّى الله عليه و سلّم !- أحقّ أن تُبَلَّغَ[1]، سنّته المسنونة للعباد، الماضية في كلّ بلاد. فإنّها سمّيت السنّة لاستنان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم !- لها، وإتّباع من مضى من صدر هذه الأمّة. ليس في الدين إتّباع الهوى، إنّما هو إتّباع من مضى، وهو الدين أجمع عليه أهل قبلتك.

وقال داود بن أبي هند: إذا أُحْدِث بالدين أجمع عليه أهل قبلتك، ثمّ يُتْرك[2] الذي اختلفوا فيه، لأنّ الذي اختلفوا فيه هو الذي نهوا عنه. وقال [عُمَرُ][3] بن عبد العزيز: إذا رأيت قوما يتناجون جون عامّتهم، فَاعْلَمْ[4] أنّهم على تأسيس ضلالة. وقال ابن عون، قال سفيان الثوري: لو قعدتم على المنابر، وصعدتم على المنار، ورفعتم أصواتكم بأعلاها، تريدون أن تؤدّوا الحق الذي يجب لله عليكم في السنّة، لكان الذي يجب لله عليكم أكثر ممّا كان منكم. وقال رجل لابن عبّاس: الحمد لله الذي جعل هواي على هواك، فاعرض عنه وقال: كلّ هوى ضلالة. وقال: إنّ الشيطان يأتي للإنسان من قبل المآثم، فان استطاعه وإلاّ أتاه من قبل البرّ، ليستدرجه ليبتدع بدعة ويترك بها[5] سنّة.

وقال ابن مسعود لبعض أهل الأهواء: لقد هديتم لما لم يهتد به نبيّكم، أو إنّكم تتمسّكون بِذَنَبِ ضلالة.

[تأدية الحديث بسنده دَيْن]

قال ابن عون: واجتمع أهل البدع على إبطال الحديث عن رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم !- وأصحابه، والتكذيب به، وذلك أنّ معرفة السنّة وأبطال البدعة إنّما جاء في حديث رسول الله. والحديث و الإسنادات سنّة، يرويه الآخر عن الأوّل، وفرض يؤدّيه[6] الأوّل إلى الآخر، قد اجتمع عليه الصدر الأوّل والآخر، لا يرتابون من الإسنادات وجمع الأحاديث إلى الأمّة، و يَرَوْنَهَا دَيْنًا، يطلبون الثواب و الأجر على تأديها وتبليغها. فان الإثم و العقوبات في كتمانها و ترك تأديتها، لقول الله عزّ وجلّ في القرآن : « إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات و الهدى، من بعد ما بيّنا[7] للناس

1 - في الأصل: لمع (بدون نقط)
2 - كلمة مطموسة، قراءة توهّميّة.
3 - كلمة محيت من الأصل، وأثبتنا مكانها ما رأيناه أقرب إلى الصواب.
4 - في الأصل: فاعلموا.
5 - بالأصل: به، فيكون الضمير يعود على البرّ.
6 - بالأصل: يؤديها، فيكون الضمير يعود على السنّة.
7 - بالأصل: بيّناه.

في الكتاب، أولائك [يلعنهم][1] الله، ويلعنهم اللاّعنون[2].» ويقول رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم !- يبلّغ شاهدُ[كم] غا[ئبَكم][3].

ويقول عمر بن الخطّاب: الحمد لله الذي امتنّ على العباد، أن جعل في كلّ زمان...[4] بقايا من أهل العلم يدعون من ضلّ منهم إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويحيون لكتاب الله أهل العمى[5]. كم من قبيل لا ينبس[6] قد أحيوه، وضال تايه قد هدوه. بذلوا دنياهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن [اليا]هم[7] الناس واجيهم. إنّ الناس عليهم يعذّبونهم في سالف الدهر، إلى يومنا هذا وتحوه. فما نسيهم الله – «وما كان ربّك نسيا[8]» - جعل نصيب[هم الجنّة][9]، وأخبر عن حسن مقالتهم. فلا تُقَصِّرْ عنهم، فإنّهم في منزلة رفيعة، وإنّ إصابتهم لوضيعة.

[لزوم السنّة عصمة]

فعليك بلزوم السنّة، فإنّها لك بإذن الله عصمة. ثمّ اعلم أنّ الناس لم يحدثوا بدعة إلاّ وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها وعِبرة فيها. فإنّ السنّة إنّما سنّها من علم ما في خلافها من الخطأ، والزيغ، و الحمقِ و التَحَمُّقِ[10]. فرضي به القوم لأنفسهم، فهم السابقون، وإنّهم على علم ثابت وقفوا، وببصر نافذٍ كُفُّوا، ولَهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل عقل فيه لو كان أجدى[11].

[بين مقصّر و مجسّد]

فان كان الهدى ما انتم عليه، فلقد سبقوكم إليه. ولئن قلت: إنّما حدث بعدهم، فما أحدثه إلاّ من هو على غير سبيلهم، ورَغِبَ بنفسه عنهم. لقد تكلّموا فيه بما يكفي، ووصفوا فيه ما يشفي. فما دونهم مُقَصِّرٌ، وما فوقهم مُجَسِّدٌ. لقد قصّر دونهم أقوام فجفوا، وطمح عنهم آخرون فغلوا، وإنّهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم.

---

1 - محيت الكلمة من طرف الورقة.

2 - سورة البقرة 2 الآية 159.

3 - محي ما بين المعقوفين من طرف الورقة.

4 - مقدار كلمتين محيا من طرف الورقة.

5 - في الأصل: الغما.

6 - في الأصل: يليس.

7 - محي ما بين المعقوفين من طرف الورقة

8 - سورة مريم 19 الآية 64.

9 - محي ما بين المعقوفين من طرف الورقة.

10 - يمكن أن نقرأ أيضا: التعمّق، فيكون يقصد المؤلّف بذلك المبالغة في النظر إلى حدّ الخروج عن الاعتدال و الصواب.

11 - أي أنّ السابقين تميّزوا أيضا بفضل العقل، ولو كان العقل يُجْدِي لفتونا بذلك.

[لا يستقيم دين لمن قال: لِمَ وكيف ؟]

فإن قلت: لِمَ أنزل الله كذا وكذا ؟ ولِمَ قال الله كذا وكذا ؟- قال ابن عون: فهذا يستحيل على العبد أن يقول: «لما انزل الله ؟». وما جاء من سنّة رسول الله: «لم وكيف ؟». ولا يستقيم[1] بعدها دين لمن قال « لِمَ وكيف « لما جاء عن أصحاب رسول الله، والتابعين بإحسان، وتابعي التابعين إلى يوم القيامة. فيكون الرجل متخيّرا في جميع ذلك. ولا يجوز له التخيّر في القرآن، ولا في سنّة رسول الله. ويعمل بأوثق ما يبلغه من العلم عنهم، لأنّهم قرؤوا من القرآن ما قرأتم، وعملوا من تأويله ما جهلتم.

[مقاومة البدع واجب]

ولو كان أهل البدع مستترين في بدعتهم دون الناس، ما كان لأحد أن يهتك عليهم سترا، ولا يظهر منهم عورة. فالله أولى بالأخذ بها أو بالتوبة عليهم. ولكن لمّا أجهروا، وكثر دعواهم إليها، لم يجز لنا تركهم. وكان نشر العلم حياة، والبلاغ عن رسول الله رحمة، يعصم به كلّ مؤمن، ويكون فتنة على كلّ مصرّ ملحد. فيكون الإنكار عليهم، والحجّة فيهم، نظرًا منّا لأنفسنا في تأديّة حقّ الله علينا، ونصيحةً لربنا فيما حمّلنا، وشفقةً على أمّتنا في دينهم. ونحن نرى مع ذلك أنّ المبالغة منّا في ذلك تقصيرٌ من حقّ الله علينا في أداء النصيحة.

[الفرق وعددها]

وإنّما افترقت الأهواء، وأصل ما افترقوا عليه: الزنادقة، والجهميّة، والقدريّة، والرافضة، والمرجئة. فهذا جماع الفرق وأصولها. ثمّ [افتر]قت[2] كلّ فرقة من هذه الفرق على فرق، فافترقوا على اثنتين وسبعين فرقة. وقال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم-: تفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في النار إلاّ واحدة، وهي الجماعة[3]. فكان من

1- في الأصل يستحيل (بدون نقط)، وهو بدون شك وهم من الناسخ أو المؤلّف جرّ إليه وقوع هذه الكلمة تحت نظيرتها في عبارة « قال ابن عون: فهذا يستحيل » التي سبقت في السطر أعلاه. فرأينا أن نقوّم النصّ بما يوافق السياق.

2- وقع ما بين المعقوفين في طرف الورقة، فمحي واسودّ.

3- فيما خصّ هذا الحديث، الذي لا يخلو منه كتاب من كتب الفرق والحديث، وبيان أنّه موضوع، انظر: عمر بن حمّادي، «حول حديث افتراق الأمّة إلى بضع وسبعين فرقة..»، في «الكرّاسات التونسيّة»، تصدرها كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، عدد 116-115 (تونس 1981) ص 358-287. مع الملاحظة أنّ محمد عبده يعتبره صحيحا ويجتهد في الاحتجاج لذلك (انظر مجلّة معهد الدراسات العربيّة IBLA)، عدد 185، تونس سنة 2000، ص 75-84.

افتراق الزنادقة على ...[1] عشر فرق؛ والجهميّة افترقوا ...[2] فرق؛ والمرجئة افترقوا على اثنتي عشرة فرقة؛ والحرورية افترقوا على ثماني [فرق؛ والقدرية][3] افترقوا على سبع فرق؛ والرافضة افترقوا على خمس عشرة/ فرقة؛ والمعتزلة؛ والشعوبية. فذلك اثنتان وسبعون فرقة، ولولا كراهيّة التطويل عليكم لنقلت لكم كلّ فرقة منهم وما قال. ولكن فيما كتبت لكم غُنْيَةٌ وكفاية لمن أراد الله هداه.

1 - كلمة مطموسة يمكن أن تقرأ: قدر.

2 - محي واسودّ ما بطرف الورقة. ويلاحظ أنّ الأشعري في المقالات (ص 279- 280) لا يذكر انقسام الجهميّة إلى فرق. انظر أيضا: H.Laoust, les Schismes dans l'Islam, index.

3 - تلف ما بين المعقوفين من طرف الورقة في أسفلها، فأثبتنا ما يوافق السياق.

ما قالت القدريّة

[ردّ زعمهم في التأكيد على القرآن دون السنّة]

زعمت القدريّة أنّهم يدعون إلى القرآن. ولو كانوا يركنون إلى القرآن بحقيقة الدين، لكان إتّباع رسول الله فيما سنّه[1] كأتّباعهم القرآن[2]. ولكنّهم أرادوا أن يغالطوا الناس، ويردّوا القرآن كما ردّوا سنّة محمّد - صلّى الله عليه وسلّم !- وأنكروها. فانّ[3] رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم !- قال: مالي أخالف القرآن، وبالقرآن هداني الله؟! وقد قال الله: «ما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا»[4]. فصارت سنّة رسول الله من القرآن كإتباع القرآن، لقول الله : «ما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا.» فدلّ أهل العلم أنّهم أرادوا خلاف ما أتى به جبريل، وخلاف ما أتى به محمّد عن جبريل عن الله.

[القرآن لا يكفي لمعرفة الفرائض]

لانّ في القرآن ما لا يعرفون به فرائضهم التي افترضت عليهم إذا قرؤوه. لانّ الله قال: «أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة[5].» فكم كانت صلاتهم ؟ وكم كانت زكاتهم؟ لو لم تأت السنّة عن رسول الله ببيان ذلك، لكان[6] يقطع بالمارقين عن دين الله. فما[7]

---

1 - في الأصل: سن نه.

2 - يتّهم عادة أهل السنّة خصومهم باستنقاصهم السنّة، وكردّ فعل يبالغون هم في احترافها، فيذهب بعضهم إلى تنويقها على القرآن، أو إلى وضعها في نفس المستوى. فانّ ابن بَطّةَ مثلا يروي ما يلي: « وقال يحي بن أبي كثير: السنّة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب قاضيا على السنّة. وقال حسّان بن عطيّة: كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم !- بالسنّة كما ينزل عليه بالقرآن، و يعلّمه إيّاها كما يعلّمه القرآن» (كتاب الشرح والإبانة على أصول السنّة والديانة، ص 19). ويحي وحسّان من أشهر المحدّثين، توفي الأوّل سنة 129/746 أو 132/749؛ و الثاني سنة 120/738 أو 130/748، فهما إذن من التابعين ومن أعدم رواة الحديث.

ومن ناحية أخرى فانّه ليس من الصواب أن نعتبر خصوم أهل السنّة كأعداء للسنّة. بل كلّ ما في الأمر هو أنّهم لا يقبلون كلّ ما يروى لكثرة الانتحال و استفحاله. وهم، مهما يكن الأمر، يعتبرون السنّة من أصول الفقه. أنظر مثلا كتاب المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيّب البصري المعتزلي، ج1 ص432-419 حيث ترد الأبواب التالية: نسخ الكتاب بالكتاب والسنّة بالسنّة؛ نسخ السنّة بالكتاب؛ نسخ القرآن بالسنّة.

3 - في الأصل: بان

4 - سورة الحشر 59 الآية 7.

5 الحجّ 22 الآية 78؛ النور 24 الآية 56؛ المجادلة 58 الآية 13؛ المزمّل 73 الآية 20. سورة البقرة 2 الآيات: 43، 83، 110؛ سورة النساء 4 الآية 77؛

6 يمكن أن نقرأ أيضا: فكان.

7 - يمكن أن نقرأ أيضا: بما.

يفعلون في دينهم ؟!

فأتى من سنّة رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم !- أن صلّى الظهر كذا، والعصر كذا، والمغرب كذا، والعشاء الآخرة كذا، والصبح كذا. لانّ جبريل نزل، فصلّى، فصلّى رسول الله أربع ركعات عند الزوال في الظهر، يُسِرُّ في ذلك بالقراءة. وكانت الركعتان الأوليان أتمّ من الأخريين، ثمّ سلّم.

فلمّا كان صلّى كلّ شيء مثله، نزل جبريل فقال: يا محمّد! الصلاة جامعة. فأمر رسول الله مناديا ينادي «الصلاة جامعة ». فصلّى جبريل برسول الله وأصحابه أربع ركعات./ فكانت أخفّ من صلاة الظهر، وكانت الركعتان الأوليان أتمّ من الأخريين. جبريل بين يدي رسول الله، ورسول الله بين يدي الناس، يقتدي رسول الله بجبريل، ويقتدي الناس بنبيّهم. ثمّ خلا عن الناس حتّى غابت الشمس، فنزل جبريل[1] فقال: يا محمّد! الصلاة جامعة. فاجتمع الناس، فتقدّم جبريل فصلّى ثلاث ركعات، فأعلن بالقراءة في الركعتين واسرّ في الثالثة. جبريل بين يدي رسول الله، ورسول الله بين يدي الناس، يقتدي رسول الله بجبريل، ويقتدي الناس بنبيّهم، ثمّ سلّم.ثم خلا عن الناس حتّى إذا غاب الشفق وإيْتَطَأَ[2] اللّيل، نزل جبريل فقال: يا محمّد! الصلاة جامعة. فاجتمع الناس، وتقدّم جبريل بين يدي رسول الله، ورسول الله بين يدي الناس، فصلّى جبريل أربع ركعات، يعلن في الركعتين الأوليين و خافت في الأخريين، جبريل بين يدي رسول الله، ورسول الله بين يدي الناس، يقتدي نبيّ الله بجبريل، ويقتدي الناس بنبيّهم. ثمّ خلا عن الناس، فظنّ الناس ألاّ صلاة بعدها. فلمّا كان الفجر نزل جبريل فقال: يا محمّد! الصلاة جامعة. فنادى رسول الله: الصلاة جامعة. فاجتمع الناس، فتقدّم جبريل، فصلّى ركعتين يعلن فيهما بالقراءة، جبريل بين يدي رسول الله، ورسول الله بين يدي التاس، يقتدي رسول الله بجبريل، ويقتدي الناس بنبيّهم. فهذا كان بدء الفرض في صلاتنا. ولولا أنّ الله أعلمنا [بـ]سنّة نبيّنا فرايضنا ما علمنا ذلك من القرآن.

ثمّ أعلمنا بالحجّ، والطواف بالبيت، والسعي والسنن فيه. فلولا أنّ رسول الله [أ] قام لنا سنّة الحجّ ما قام لنا [ذلك] من القرآن. ثمّ أمرنا في القرآن، فقال: «آتو الزكاة.» فأتانا من سنّة رسول الله ما تزكّى به الإبل، والبقر، والغنم، والذهب والفضّة، وجميع الحبوب. ولولا سنّة رسول الله ما عرفنا ذلك من القرآن.

1 - ورد في الأصل بعد جبريل: «فصلّى ثلاث ركعات»، ثمّ شطب على هذه العبارة، و واضح أنّها أقحمت خطأ في غير محلّها.

2 - تقدّم و استقرّ.

[قصد القدريّة من قولهم: لا نصّ إلاّ القرآن]

فافهم هذا الدليل البيّن [و] ما أراد القوم من ترك السنّة، وقولهم: «لا [نصّ] إلاّ القرآن». والقرآن قد نبذوه وراء ظهورهم. وإنّما أرادوا القرآن وقصدوا قصده لأنّه جمول دلول، ذووجوه، تجدون فيه ما يشبّهون به على كلّ ضعيف غير عارف بالعلم. فنسأل الله أن يمنّ علينا وعليكم بإتباع سنّته/، والمضي على ما مضى عليه المهتدون من[1] صدر هذه الأمّة، حتّى يميتنا على ذلك إنّه وليّ قدير.

[ردّ مزاعم القدريّة في قضيّة الخير والشرّ]

ما ادّعت القدريّة. زعمت القدريّة المارقون في الدين أنّ الله خلق الخير وأمر به، ولم يخلق الشرّ، ولو خلقه لام ربه. فزعموا أنّ للخير إلاها، وللشرّ إلاها، وهذا قول الزنادقة. لأنّه ليس مع الله قاض ولا حاكم، والخير والشرّ منه، قدّر جميع ذلك. فمن قال غير ذلك فليس له في الإسلام حظّ ولا نصيب.

فيقال لهم: ما أراد الله من إبليس ؟- فيقولون: أراد منه الطاعة.- فافْهَمْ كُفْرَهَم إذ قالوا « أراد منه الطاعة»، فزعموا أنّه قد تمّت إرادة إبليس حين أراد لنفسه المعصيّة، لأنّه عاص إلى يوم يبعثون، ولم تتمّ إرادة ربّنا - تبارك وتعالى!- إذ أراد منه الطاعة. فصارت إرادة إبليس في نفسه أكثر من إرادة ربّ العالمين فيما أراد. فأكفر أكثر من هذا ؟!

وقد بلغني أنّ رجلا أتى إلى ربيعة - منهم[2]- فقال له: يا ربيعة! تزعم أنّ الله يعذّبني على ما قدّر عليّ ؟!- فقال له ربيعة: فأنت تزعم أنّ الله يُعْصَى قصرا! وقال ربيعة: لئن كنتم صادقين- وأعوذ بالله أن تكونوا صادقين- لئن كان الشرّ والخير بأيديكم، لما بأيديكم أعظم ممّا بيد ربّكم.

[غيلان ومناظرة الأوزاعي له]

وقد بلغني أنّ الخليفة بعث إلى غيلان[3] القدري- وبلغه أنّه يتكلّم في القدر- فبعث

---

1 - في الأصل: و من.

2 - الضمير يعود على القدريّة. أي أنّ السائل كان من القدريّة. وربيعة المقصود هنا هو ربيعة الرأي، توفي سنة 136/753-754، وكان من أجلّ أيمّة السنّة وأفطنهم. انظر الفهرس. ويروى أنّ السائل هو غيلان انظر عيون المناظرات لأبي علي عمر السكوني، ص205.

3 - انظر الفهرس حيث نترجم له مع الإحالة على المراجع. والذي يجب أن نلاحظ هنا، هو أنّ هذه الرواية الغاية منها وضع الشهرة العظيمة التي كان يتمتّع بها الاوزاعي في الميزان، وذلك لتبرير إعدام غيلان. غير أنّ هذه الرواية غير مقبولة. وذلك أنّ الاوزاعي توفي سنة 157 وسنّه 70 سنة. فيكون إذن ولد سنة 87. فهو إذن في أوّل خلافة هشام بن عبد الملك (125-105) لم يتجاوز 18 من عمره، وفي آخرها لم تتقدّم به السنّ بحيث يحرز على السمعة التي اكتسبها عندما أصبح شيخا. يعسر إذن أن يكون هو الذي دعاه

إليه وقال له: انته عن هذا!- فقال له: أصلح الله الخليفة! ابعث إليّ من يكلّمني. فإن ظفر بي، فاضرب عنقي. وإن ظفرت به، فما لك إليّ سبيل. فبعث إلى الأوزاعي، فقال له: بلغني أنّ غيلان يتكلّم في القدر، فنهيته فقال: ابعث إليّ من يكلّمني. فإن ظفر بي، فاضرب عنقي، وإن ظفرت به، فما لك إليّ سبيل. فبعثت إليك لتكلّمه.

فقال له الأوزاعي: أسألك عن ثلاث أو خمس ؟- قال: تسألني عن ثلاث- فقال له: هل علمت أنّ الله قضى على ما نهى عنه ؟- قال له: ما عندي من هذا علم- فقال له الأوزاعي: هل علمت أنّ الله حال دون ما أمر به ؟- فقال: ما عندي من هذا شيء- قال له الأوزاعي: فهل علمت أنّ الله [أ]عان على ما حرّم- قال: هذا أعظم من الثنيتين، ما عندي من هذا علم.

قال الأوزاعي للخليفة/: أصلح الله الخليفة! مُرْ بضرب عنقه! فأمر به فقتل وصلب.

قال ابن عون: وكان الخليفة هشام بن عبد الملك. فقال الخليفة: يا أبا عمرو! قلت ففسّر. فقال الأوزاعي: قضى على ما نهى عنه. نهى آدم عن أكل الشجرة، وقضى عليه بأكلها. وحال دون ما أمر به. أمر إبليس بالسجود، وحال بينه و بينه. و[أ]عان على ما حرّم. حرّم الميتة، و [أ]عان المضطرّ على أكلها.

[الرد على المكذّبين بقدر الله]

وحدّثني[1] يحي بن عون، عن أبيه عون بن يوسف، عن الأعشى محمد بن علي، عن أبيه، قال: قال رسول الله- صلّى الله عليه و سلّم !- لو أنّ المكذّب بقدر الله كسب الدنيا من حلال، وأنفقها في حلال، وحجّ البيت، وجاهد، واعتمر، ثمّ ذُبِح بين الركن و المقام مظلوما بدمه، لم ينفعه ذلك عند الله شيئا حتىّ يصليه سقر، لقول الله :

الخليفة لمناظرة غيلان لذا فإنّنا نفضّل رواية الطبريّ وهي الآتية: «حدّثني أحمد، قال: حدّثنا علي، قال: قال حمّاد الأبح: قال هشام لغيلان: ويحك يا غيلان! قد أكثر الناس فيك. فنازعنا بأمرك، فان كان حقّا اتبعناك، وان كان باطلا نزعت عنه. قال: نعم. فدعا هشام ميمون بن مهران ليكلّمه، فقال له ميمون: سل، فغنّه أقوى ما تكونون إذا سألتم- قال له: أشاء الله أن يُعصى؟- فقال له ميمون: أفعُصي كارها!- فسكت. فقال هشام: أجبه. فلم يجبه. فقال له هشام: لا أقالني إن لم أقتله. وأمر بقطع يديه و رجليه «(تاريخ، ج7 ص203). وكان ميمون بن مهران الرقي من مشاهير التابعين، روى عن عائشة وأبي هريرة، وولي قضاء الجزيرة للأمويين، وتوفي سنة 117 (ابن العماد، شذرات ج1 ص154). فالأرجح أن يكون هو الذي ناظر غيلان. واليه أيضا نسب أبو علي عمر السكوني هذه المناظرة (عيون المناظرات، ص292).

ولقد وردت نفس القصّة، مع بعض الاختلاف في اللفظ وعدم ذكر اسم غيلان، في ترجمة عون بن يوسف الخزاعي. انظر المالكي، الرياض، ج1 ص298.

1 - إنّ هذا الفعل يجعلنا نجنح إلى الاعتقاد أنّ هذه الفقرة كانت بهامش بعض النسخ، أضافها بعض تلاميذ يحي بن عون إلى كتابه عند سماعه عنه، ثمّ أقحمها فيما بعد بعض النسّاخ في صلب النصّ.

«ذوقوا مسّ سقر، إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر[1]». وإنّما انزلَ الله هذه الآية تعييرا لأهل القدر: «إنّ المجرمين في ضلال و سُعُر، يوم يسحبون في النار على وجوههم، ذوقوا مسّ سقر[2]».

قال ابن عون: حدّثني عون عن بعض أهل العلم، أنّ رجلا من أهل القدر وقف على علي بن أبي طالب، فقال له علي: لقد[3] خالفتم الله، وخالفتم الملائكة، وخالفتم الأنبياء، وخالفتم أهل الجنّة، وخالفتم أهل النار، وخالفتم إبليس- فقال: كلّ هؤلاء خالفنا، يا أمير المؤمنين!- فقال: نعم، وأجيبكم به في كتاب الله. قال الله لنبيّه: « انك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء» [4]. وأمّا خلافكم الملائكة، فإنّهم قالوا: «لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا»[5]. وأمّا خلافكم الأنبياء، فإنّ نوحا قال لقومه: «ولا[6] ينفعكم نصحي إن أردت أن انصح لكم إنّ كان الله يريد أن يُغْويكم هو ربّكم واليه ترجعون»[7]. وإمّا خلافكم أهل الجنّة، فإنّهم حين دخلوا الجنّة، قالوا: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله»[8]. وأمّا خلافكم أهل النار، فإنّهم حين دخلوها قالوا: «ربّنا غلبت علينا شِقوتنا»[9]. و أما خلافكم إبليس، فإنّه حين دخلها قال: «ربّ بما أغويتني»[10].

قال ابن عون: فلو عذّب الله أهل السموات و الأرضيين، لعذّبهم وهو غير ظالم لهم؛ ولو أدخلهم الجنّة، لكان برحمته أوسع من ذنوبهم. ولقد أدخل الله أهل النار/ النارَ، وإنّ الله لمحمود في صدورهم، لأنّهم علموا أنّه لم يصيّرهم إلى النار إلاّ بما استحقّوا به العذاب، وأنّه غير ظالم لهم.

قال ابن عون: ولقد بلغني أنّ ابن عبّاس أخذ طينا فكوّره بُنْدُقَةً، ثمّ قال لأصحابه: ما في داخلها ؟- قالوا: لا ندري- فقال لهم: أنا خلقتها، أنا أعلم بما فيها، لقول الله: «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير»[11].

1- سورة القمر 54 الآية 48 - 49.

2- سورة القمر 54 الآية 47 - 48.

3- هذه الكلمة مكررة بالأصل.

4- سورة القصص 28 الآية 56.

5- سورة البقرة 2 الآية 32.

6- في الأصل: لن.

7- سورة هود الآية 34.

8- سورة الأعراف 7 الآية 43.

9- سورة المؤمنون 23 الآية 106.

10- سورة الحجر 15 الآية 39.

11- سورة الملك 67 الآية 14.

قال ابن عون: فصحّت الرواية عن نبيّ الله، عن الله- تبارك وتعالى!- أنّه لما خلق آدم، مسح ظهره بيمينه، فأخرج كلّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فقال: هؤلاء في جنّتي ولا أبالي. ومسح بيده الأخرى- وكلتا يديه يمين- فمسح بها ظهره اليسار، فاستخرج كلّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فقال: هؤلاء في ناري ولا أبالي. فمضت إلى يوم القيامة. قال ابن عون: فكان في علمه السابق- تبارك وتعالى!- أنّه قد علم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وبعدما خلقهم، أكثر ممّا علم ابن عبّاس ما في داخل البندقة التي[1] دوّرها. فافهم وتدبّر ذلك.

قال ابن عون: قال الله في كتابه: «ولو رُدُّوا لَعَادوا لما نهوا عنه وإنّهم لكاذبون»[2]. علم من أهل الطاعة أنّهم سيطيعون ما بقوا، وعلم من أهل المعصية أنّهم سيعصون ما بقوا.

وقد قال علي بن أبي طالب لرجل منهم - وقد سأله عن القدر- فقال له علي: القدر بحر عميق، فلا تتهوّر فيه. -فقال له: يا أمير المؤمنين! أجبني عن القدر- فقال له علي: القدر سرّ الله، فلا تسأل عن سرّه. فولّى القدري وهو يقول: سألت أمير المؤمنين عن القدر، فلم يجبني- فقال له علي: ارجع، فلأسألنّك[3] عن أربع خصال، فإن رجعت عن واحدة منها لأضربنّ عنقك. ربّنا - تبارك وتعالى!- خلقك لما شئت أولما شاء ؟- قال: لما شاء- قال: فيحييك، حين يحييك، لما شئت أولما شاء ؟- قال: لما شاء- قال: فيميتك، حين يميتك، لما شئت أولما شاء ؟- قال: لما شاء- قال: فيبعثك، حيث يبعثك، لما شئت أولما شاء ؟- قال: لما شاء- فقال له علي: اذهب، فليس في يديك شيء! فمن زعم أنّ مع الله قاضيا/ ورازقا، فقد كفر بالله العظيم، لأنّه خلق الخير والشرّ.

ويقول القدرية: إنّه لم يخلق الشرّ. فينزّهونه بأن يكون خلق الشرّ بالكفر به، لأنّهم جعلوا للشرّ خالقا غير الله، فصاروا إلهين، إلهًا للشرّ وإلهًا للخير. وفيها، في كتاب [الله][4]، دليل لمن أراد الله هداه. قوله: «أولائك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم، لهم في الدنيا خِزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم»[5]. فأين الاستطاعة هاهنا لشيء قد تقدّم علم الله به ؟! وآي كثير في القرآن، ممّا هو حجّة عليهم، يطول ذكرها.

1 - في الأصل: الذي.

2 - سورة الأنعام 6 الآية 28.

3 - في الأصل: فلا اسلنك.

4 - أضفت العبارة ليستقيم السياق.

5 - سورة المائدة 5 الآية 41.

قال ابن عون: ولقد سألني رجلان منهم، من بني نجران[1] (إذ كان مرابطا بسوسة)، في اجتماع من الناس [و] خلق عظيم، فقال واحد منهما: كيف يعذّبنا الله على ما قدّر علينا ؟- فقلت له: أشيء في البدن أنفع من العقل ؟- قال: لا- قلت له: أفمكتسب هو أم مخلوق ؟- فسكت، ولم يكن عنده جواب. فقلت له: لئن زعمت أنّه مخلوق، فما في يدك شيء. وإن زعمت أنّه مكتَسب، فينبغي لك أن تكتسب منه ما يحتاج [فيه] إليك الخلفاء، والقضاة والولاة، ولا تقعد في أخلاقك هذه- فقال لي الآخر، حين أفحم صاحبه: رحمك الله! إنّهم يقولون كيف يعذّبنا على ما قدّر علينا؟- فقلت له: أخبرني عن المأبون في دبره، أشيء أراده لنفسه، أو شيء قضي عليه ؟ فسكت. فقلت له: لئن زعمت أنّه شيء أراده لنفسه، لقد أَحَلْتَ، لأنّه من كان به هذه البليّة افتدى منها بماله وولده، فكيف يحبّها لنفسه، وهو يفتدي [منها] بما أنعم الله به عليه! وإن قلت: إنّه شيء قضي عليه، فما في يدك شيء. فقال لي: إنّ المأبون في دبره مرض من الأمراض- فقلت له: فكلّ مريض يطلب ثواب مرضه من الله، فممّن يطلب ثوابه هذا؟! فولّى عنّي، ودخل في الناس، ومضى.

ويقال لهم : أخبرونا عن الرجل الذي يقول «لا أعمل خيرا ولا شرّا.» فيقولون: لا يدخل جنّة ولا نارا.[2]/ فتأخذهم الحجّة، لقول الله : « فريق في الجنّة وفريق في السعير[3].»

[التحذير من القدريّة وتخليدهم في النار]

فاحذروهم، وحذّروهم الناس. وقال البهلول- رحمة الله عليه!- ليس في الأفراق[4] فرقة أنجس ولا أرجس من القدريّة، غمرت أهل الأهواء فكفروا بها[5]. وعمدت القدريّة إلى الربّ - تبارك و تعالى!- فأوهنوا ملكه، وقصدوا[6] قصده، وزعموا أنّه لم

---

1 - « نجران بن زيدان، بطن من القحطانيّة «. انظر عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، ج3 ص 1173.

2 -لم نقف على هذا القول للقدريّة في غير هذا النصّ. وكلّ ما يروي الأشعري في شأن المعتزلة هو أنّهم «اختلفوا هل يكون فعل الإنسان لا طاعة ولا معصية، أم لا، على مقالتين. فقال قائلون: لا فعل للإنسان البالغ إلاّ وهو لا يخلو من أن يكون طاعة أو معصية. وقال قائلون: إنّ الأفعال منها طاعات، ومنها معاص، ومنها مباحات، لم يأمر الله بها، ليست بطاعة ولا معصية.» (مقالات الإسلاميّين، ص 447).

3 - سورة الشورى 42 الآية 7.

4 - هذا الجمع غير متداول، غير ان اللسان (ج10 ص301-300) يذكره: « وأفراق جمع فرقة... قال: وأفراق جمع فِرَق، و فِرَق جمع فرقة.»

5 - أتت هذه العبارة مضطربة بالأصل وهذا نصّها: عمدت أهل الأهواء فكفروا بها ولي وها ولي.

6 - أي كسروا. فصاحب اللسان (ج3 ص 355) يروي أنّ العرب تقول « قصدت العود قصدا، كسرته». وتقول « قصده قصدا، قسره» (357).

يعلم شيئا حتّى كان.

وقال عون - رحمة الله عليه!- أَرُونيه قدريا صغيرا أَرِكموه زنديقا كبيرا. فكلّ من رأيتموه منهم فلا تقفوا معه، واحذروه*[1]، وحذّروه الناس. واعلموا أنّ كلّ من في النار يرجو الخروج منها، إلاّ ثلاثة: إبليس، وكافر بالله، وصاحب بدعة. فقد أيسوا من الخروج من النار.

[لا يبالي صاحب السنّة وإن كانت ذنوبه حشو الأرض]

قال ابن عون: وسمعت عونا - رحمة الله عليه!- يقول: لا يبالي من سلم له الإسلام و السنّة على أيّ جنب لقي الله- فقلت له: وإن كثرت ذنوبه ؟- قال لي: نعم، وإن كانت حشو الأرض، يلقى الله بها العبد. فاستكثرتُ[2] ذلك وتعجّبتُ منه. فقال لي: أيّهما أكثر، ذنوب جميع الخلق، أو رحمة الله ؟- فقلت له: رحمة الله- فقال لي: فتلك الذنوب كلّها تدخل في رحمة الله.

ففي هذا بيان لمن أراد الله هداه، وإن كانت الحجّة عليهم كثيرة بطول ذكرها. جعلنا وإياكم ممن يقتدي بالماضين المهتدين، ويَقْفو آثارهم، ويسلك سبيلهم. وصلّى الله على محمّد!

ما قالت الجهميّة والردّ عليهم

[ردّ قولهم في أنّ الله ليس بشيء]

قال ابن عون: زعمت الجهميّة أنّ الله لا يقع عليه اسم شيء، فإذا وقع عليه اسم شيء، وقعت عليه الصفة. وقد قال الله في كتابه - وقوله الحقّ البيّن، الواضح التنزيل- « قُل أيّ شيء أكبر شهادةً، قل الله شهيد بيني وبينكم[3]». فاخبر أنّ الله شيء.

وزعمت الجهميّة أنّهم لا يصفون لله قوّة. وقد قال الله في كتابه: ... «[وقالوا] من أشدّ منّا قوّة ؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة[4].»

1 - أضيف ما بين النجمتين بالهامش مع إشارة تدلّ على مكانه من النصّ.

2 - هذه الكلمة، كجلّ ما كتب في النصّ، غير منقوطة في المخطوط. فيمكن إذن أن نقرأ أيضا: «فاستكبرت».

3 - سورة الأنعام 6 الآية 19.

4 - سورة فصّلت 41 الآية 15.

[الله يفوق كلّ وصف]

وقد تبالغت الجهميّة في صفة[1] الربّ العظيم، الذي فاقت عظمته الوصف و التدبير، وكلّ الألسن عن تفسير صفته، وانحسرت العقول دون معرفة قدرته، وردعت عظمته العقول، فلم تجد مساغا، فرجعت خاسئة وهي حسيرة[2]. وإنّما أمر[نا] بالنظر و التفكير، فيما خلق بالتقدير. وإنّما يقال «كيف كان»، لما لم يكن مرّة ثم كان. فأمّا الذي لا يحول ولا يزول، ولم يزل وليس له مثل، فإنّه لا يعلم كيف هو. وكيف يُعْرَف قدر من لم يُبْدأ، ولا يموت ولا يَبْلى ؟! وكيف يكون لصفة شيء منه حدّ أو منتهى، يعرفه عارف، أو يحدّ[3] قدره واصف ؟!/ وذلك من جلاله، فضلا على أنّه الحقّ المبين، لا حقّ أحقّ منه.

[العقل عاجز عن إدراكه]

والدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته، عجزها عن تحقيق صفة اصغر خلقه، لا تكاد تراه صغرا، يحول و يزول، ولا ترى له سمعا ولا بصرا. ولما يتقلّب به، ويحتال من عقله، أعْضَلُ بك وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره. تبارك الله أحسن الخالقين، وخالقهم، وسيّد السادة وربّهم، «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير!»[4]

[نكتفي بما وصف الله به نفسه]

فما وصف الله لنا من نفسه على لسان نبيّه، سمّيناه كما سمّاه، ولم نتكلّف منه صفة ما سواه. لا نجحد ما وصف، ولا نتكلّف معرفة ما لم يصف. اعلموا - رحمكم الله!- أنّ العصمة في الدين أن تنتهي حيث انتهى بك، ولا تجاوز ما قد حدّ لك. فإنّ من قوام الدين معرفة المعروف، وإنكار المنكر. فما بُسِطت عليه المعرفة، وسكنت إليه الأفئدة[5]، وذُكِرَ أصله في الكتاب و السنّة، وتواطأت[6] عليه الأمّة، فلا تخافنّ في ذكره وصفته من ربّك، ما وصفه من نفسه عينا، ولا تتكلفنّ ما لم يصف

1 - ابن عون يحذّر من المبالغة في الكلام في صفة الله، سواء بالنفي أو الإثبات. ويؤاخذ الجهميّة، وأهل الكلام عامّة، على مبالغتهم في الخوض في الصفات، لأنّ الله يفوق كلّ وصف.

2 - اقتباس من قوله تعالى: ثمّ أرجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير (سورة الملك 67 الآية 4).

3 - حيث أنّ الكلمة غير منقوطة يمكن أن نقرأ أيضا: يجد.

4 - سورة الشورى 42 الآية 11.

5 - في الأصل: الافدة.

6 - في الأصل: تواطت.

لك من ذلك قَدْرًا[1]، ولا تتكلفنّ علمه بعقلك، ولا وصفه بلسانك. اصمت عنه، كما صمت الربّ عنه من نفسه. فإنّ تكلّفك معرفة ما لم يصفه من نفسه، مثل إنكارك ما وصف منها. وما ذكر عن رسول الله أنّه سمّاه من صفة ربّه، فهو بمنزلة ما سمّى ووصف الربّ من نفسه.

[الله يخاطبنا بما نعقل]

فإنّ الله - وله الحمد!- خلقنا ولا نعرف شيئا إلاّ ما عرّفنا. ثمّ عرّفنا المعرفة التي ركّبها فينا، فعرفناه بها، وبالفطرة[2] التي فطرنا عليها. وجعل لنا ألفاظا عقلنا بها من أنفسنا ما حدّدناه وشاهدناه. ثمّ خاطبنا - تبارك وتعالى!- بمثل تلك الألفاظ التي بها عقلنا أنفسنا وعرفناها، وما وصف من نعيم الآخرة وعذابها، بما شاهدنا من نعيم الدنيا. وذلك غير محدود عندنا - عينا بعين، بطعم ولا لون- بالألفاظ التي عقلنا، عندما أخبر مِنْ ذكر الجنان، والأرايك و الألوان، [و] الصحاف [و] الذهب واللؤلؤ والمرجان، والحور المقصورات في الخيام؛ وما ذكر من النخل والرمّان، وما ذكر من النار والجحيم والزقوم، والأغلال و الأصفاد و الأنكال و السلاسل الثقال. أعوذ بالله من النار، ونسأله الجنّة.

[الردّ على إنكارهم الاستواء على العرش]

ثمّ أخبرنا - تبارك وتعالى!- عن نفسه ما علّمنا في كتابه، فقال:» الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا، ثمّ استوى إلى/ السماء فسوّاهنّ سبع سموات وهو بكلّ شيء عليم»[3].

وأنكرت الجهميّة استواءه على العرش، وقد ذكر الله ذلك في القرآن في أكثر من عشرة مواضع، اكره تطويلها. وذُكِرَ عن رسول الله، والصحابة الموثوق بهم في الاختلاف من الإسناد، استواءه[4] على العرش في أكثر من عشرين موضعا فيما بلغني سوى ما لم يبلغني. فزعمت الجهمية أنّه استولى على العرش، تريد امتلك. ولم يقولوا، كما قال - تبارك وتعالى!- الرحمان على العرش[5]. فاستعظموا قول الله وخالفوه، وقالوا: الله في كلّ مكان، وكلّ مكان خال فهو من الله مَلأٌ. فلم يستعظموا

1 - أي اعتمادا على العقل و التدبير و القياس. انظر اللسان ج5 ص 76.

2 - انظر دائرة المعارف الإسلامية تحت عبارة فطرة، ومقدّمة ليون ڤوتي (L.Gauthier) لترجمته لحيّ بن يقضان لابن الطفيل، الطبعة الثانية.

3 - سورة البقرة 2 الآية 29.

4 - في الأصل: باستواه.

5 - سورة طه 20 الآية 5.

على أنفسهم أن يقولوا: امتلأ منه الجيف[1] والكنف. فهذا عند الله عظيم!

[الردّ على إنكارهم أنّ الله في السماء]

وإنّ الله - تبارك وتعالى!- في السماء دون الأرض، وعلمه في كلّ مكان. « لا يعزُب عنه مثقال ذرّة[2] في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا اكبر.» والدليل أيضا، بالحجّة عليهم، أنّ الله باين من خلقه بذاته - تبارك وتعالى!- الحجبُ التي حجبته.

وقد قال رجل للنبي - عليه السلام!- وقد أتاه بخادم له سوداء، فقال لرسول الله: عليّ رقبة مؤمنة، أفأعتق هذه؟- فقال لها: أين ربّك؟- قال: في السماء- قال لها: فمن أنا؟- قال: رسول الله- قال: فاعتقها، فإنّها مؤمنة.

وقول الله لعيسى دليل على ذلك: «إنّي متوفّيك ورافعك إليّ»[3]. ونحو من ثمانين آية في القرآن أنّه في السماء دون الأرض، أكره تفنينها لموضع التطويل.

وحدّث الرواة عن رسول الله، والصحابة والتابعين، أكثر من أربعين حديثا، فيما بلغني، اختلفوا في الإسناد عن الرجال، أنّه على عرشه، بائن من خلقه بذاته، مع أحاديث كثيرة لم أحفظها ولم تبلغني.

على أنّ الحجب التي تظاهر عليها العلماء، والرواة، [و] هلمّ جرّا إلى يومنا هذا- إنّ دون الله حجبا- [حجّة][4] بانّ الله بائن من خلقه، على عرشه فوق سمواته. قال الله - تبارك وتعالى!- «كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون»[5]. وقيل للنبيّ[6] - عليه السلام!- هل رأيت ربّك؟ - قال: فاحسبه انتفض وقال: يا محمّد! إنّ بيني و بينك[7] سبعين حجابا من نور، لو دنوت إلى واحد منها[8] احترقت. مع أحاديث كثيرة يطول ذكرها.

---

1 - هذا يذكّر بما نسبه أحمد بن يزيد المعلّم إلى المريسي من القول بأنّ الله « في جوف حمار ميّت.» انظر هذا الكتاب ص 5.

2 - في الأصل: لا يعزب عنه مثقال حبّة من خردل في السموات... وليس من شكّ في انّه قد اشتبهت على المؤلف آيات مختلفة مزج بينها لتقاربها نصّا ومعنى، وهي الآتية: سورة يونس 10 الآية 61، سورة لقمان 31 الآية 16، سورة الأنبياء 21 الآية 47. والآية المقصودة هي التي أثبتناها: سورة سبا 34 الآية 3.

3 - سورة آل عمران 3 الآية 55.

4 - أتت هذه الجملة مضطربة، فأضفنا ما بين المعقوفين اعتمادا على السياق.

5 - سورة المطفّفين 83 الآية 15.

6 - في الأصل: وقول النبي.

7 - في الأصل: بينه.

8 - في الأصل: منهما.

[الردّ على إنكارهم النزول]

وأنكرت الجهميّة أنّ الله ينزل. ويقولون: لا يخلو منه مكان. ويقولون: فمن يخلفه إذا نزل؟- فيقال/ لهم: فمن خلفه في الأرض إذ صَعِد؟

وقد قال الله: «وكان عرشه على الماء»[1]. فمن كان علمه في كلّ مكان سواء، فلم يخلُ منه مكان. مع أكثر من خمسين حديثا في مثل هذا، عن النبيّ والصحابة والتابعين، يختلفون في الإسناد، ويزيد بعضهم على بعض في الحديث، ويكون بعضهم أحسن اقتصاصا من بعض، سوى ما لم يحفظ، على أنّ الله - تبارك وتعالى!- في السماء. تَثَبَّتُوا ذلك و أَوْعُوه، وسكنت إلى ذلك أفئدتهم[2]، لا يرتابون ولا يشكّون، كرهتُ التطويل في ذلك، وقد بيّنتُ جميعها في غير هذا الموضع. وإنّما سُمِّيت الملائكة « المقرَّبون » لقربهم من الله دون جميع خلقه. وإنّما حيّرت الجهميّة الناس، وأضلّوا عقولهم، حين قالوا: « إنّ الله لا يخلو منه شيء، ولا يزول عن موضعه »، فأسرع إلى الجهّال قولهم.

وكذلك قال الله[3]، تبارك وتعالى! ولكنّ الله ليس بمنزلة الخلق في نزوله، لأنّه ليس أحدا من الخلق، يصير من مكان إلى مكان، وموضع كان فيه إلى غيره، إلاّ وهو زائل عن موضعه أو مكانه الأوّل بنفسه. و أنّ الله إذا استوى من الأرض إلى السماء، أو نزل من السماء إلى الأرض، لم يعزب عن عمله [ما] في السموات ولا في الأرض. علمه فيهنّ بعد الاستواء وبعد النّزول، كعلمه قبل ذلك. فمن كانت هذه حاله، فليس بزائل مثل خلقه، تبارك الله رب العالمين!

[ما زعمت الجهميّة من خلق القرآن.]

وزعمت الجهميّة أنّ القرآن مخلوق. وذلك أنّهم أرادوا التعطيل وجحود القرآن. فلما رأوا إجماع الأمّة على القرآن، وأنّه حقّ، وأنّه نُزِّل من عند الله، كرهوا أن يعارضوا الأمّة بالجحد، فعارضوها بكفر مُصَرَّح[4]، وجعلوا القرآن مخلوقا[5] مثل الشجر،

1 - سورة هود 11 الآية 7.

2 - في الأصل:افدىهم (هكذا بدون نقط)

3 - أي مما ذكر في كتابه من نزوله واستوائه.

4 - كذا بالأصل: غير أنّه، حيث هذه الكلمة غير منقوطة كما هو الشأن عادة بالنصّ، ولتشابه بعض الحروف به (د، ذ، ر، ز، و ...) يمكن أيضا أن نقرأ: مِصْدَحٍ = صارخ؛ أو مضرّج، من ضرّج الكلام = حسّنه وزوّقه؛ أو مضوّح = ممزوج، كما يمزج اللبن بالماء؛ أو مصوّخ = يصوخ فيه الإنسان كما يصوخ في الأرض الصوّاخة؛ أو مطوّح ... إلى غير ذلك من الاحتمالات المنجرّة عن عدم إعجام الحروف.

5 - أضيفت الكلمة بخطّ النّاسخ بالهامش مع إشارة إلى مكانها من النصّ.

والجبال والمدر، إباحة لتعطيل[1] القرآن بالحدّ منه وانتقاصه. وذلك مذهب كلّ من قال بهذا القول. وسأبيّن لكم فيه من تنزيل القرآن، والبلاغات عن الرسول وأصحابه، ما يبيّن لكم أنّه كلام من كلام الله، تكلّم به وقاله.

وزعموا أنّ كلام الله، وعلم الله، وإرادة الله، وقدرة الله، ومشيئة الله مخلوقات.

والله[2] - تبارك وتعالى!- عالم، قدير، مريد[3]، شاء[4]، متكلّم، إذا شاء أن يتكلّم تكلّم، وإذا أراد أمرا قدّر، وإذا شاء فعَلَ، لا يعزب عن عمله مثقال ذرّة[5]، «ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم، ولا خمسة إلاّ هو سادسهم، ولا/ ادني من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أين ما كانوا، ثمّ ينبّئهم بما عملوا»[6].

فمحال أن يقال: رابع مع ثلاثة، أو خامس مع أربعة، أو سادس مع خمسة كلّهم[7]. وكُفْرٌ أن يقال: ممتزج بالخلق، غَيْرُ بائن منهم. كقول جهم: « من عبد حصاة، أو عمودا، أو حجرا، فقد عبد الله، لأنّ الله ممتزج به[8].» تعالى الله عمّا يقولون علّوا كبيرا! ولكنّه اخبر أنّ علمه مع كلّ احد، كما قال: « إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون»[9]، و: « إنّ الله مع المتّقين»[10]. في أشباه ذلك «معهم»، يريد: معينا لهم،

1 - بالأصل: لبعطم (هكذا بدون نقط) فأصلحنا الكلمة حسبما يقتضيه السياق بأقرب ما يوافق خطّها، وقد سبق الحديث أعلاه عمّا يقصده الجهميّة من تعطيل القرآن.

2 - بالأصل: وأنّ الله ... ولقد حذفتُ « أنّ» رفعا للالتباس، لأنّ الواو ليست هنا حرف عطف، وإنّما هي حرف استئناف. فلا يتابع المؤلّف رواية قول الجهميّة، بل العكس « يجزم جزما قاطعا بما يخالف قولهم ويفنّد زعمهم.

3 - بالأصل: يريد.

4 - بالأصل: شايبا (هكذا منقوطة).

5 - اقتباسا من قوله تعالى: «وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة» (يونس10، الآية 61)؛ ومن قوله:» لا يعزب عنه مثقال ذرّة» (سبا 34 الآية 3).

6 - سورة المجادلة 58، الآية 7.

7 - في الأصل: كهم.

8 - هكذا كان الحال بمكّة قبل الإسلام. ولم يكن ذلك مقصورا على العرب بمفردهم. فكثير من الأديان كانت- وبعضها ما يزال- على هذه الحال. وهو ما يعبّر عنه في علم الأديان بعبارة: Le Culte Des Bétyles /Baetylia Cults.

أحسن مصدر عربي هو كتاب الأصنام لهشام ابن اللكبي (120-204/737-819). طبع بالقاهرة سنة 1912 وترجم لعدّة لغات. أعاد تحقيق الكتاب مع ترجمة فرنسية الأستاذ عطاء الله (باريس 1969). انظر أيضا مؤلّف توفيق فهد: Toufic Fahd, Le Panthéon de l›Arabie Centrale à la Veille de l›Hégire, Paris 1968.

9 - آخر سورة النحل 16.

10 - وردت هذه العبارة في ثلاث آيات: البقرة 2 الآية 194؛ التوبة 9 الآية 36، 123 وفي الأصل: لمع المتّقين.

موفّقا لهم، مسدّدا لهم، وهو اقرب إليهم من حبل الوّريد[1]. على هذه الجهة فاعرفوا بيان ذلك، والتوفيق من الله.

ولن يخلو الذي يزعم أنّ القرآن مخلوق أن يكون على جهتين: منهما أنّ الله لم يتكلّم، وليس القرآن كلامه. فقد ردّ الله في آي كثيرة ذكرها في القرآن أنّه كلامه. ووجهة منهما أن يقول: هو كلام الله، والله خلق كلامه، فيكون محالا في اللفظ، زاعما أنّ الله منه شيء مخلوق. تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا! فقد كفر أهل هذه الصفة في الوجهين جميعا.

وإنّما شبّهت الجهميّة على الناس أن قالوا: «كلّ شيء دون الله فهو مخلوق، والله الخالق، والقرآن شيء.» وإنّما كلام الله كعلمه: لم يزل عالما، ولم يزل متكلّما، لا ينقض بعضه بعضا. وليس هو كالشيء المخلوق، لأنّ بكلامه خلق الخلق. فبأيّ شيء خلق كلامه ؟! وذلك قوله - تبارك وتعالى!- «إنّما قولنا[2] لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون»[3]. فالخلق كلّه بكن، فصار بها خلق الخلق، فبأيّ شيء خلق كن ؟! تعالى الله عمّا يقولون علوّا كبيرا!

قال الله: « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله»[4] ... وقد ذكر الله ذلك في القرآن في أكثر من ثلاثين موضعا. وفي حديث رسول الله، وأصحابه التابعين، في أكثر من ثلاثين موضعا أيضا فيما حفظت وفيما بلغني/، أنّ القرآن كلام الله، وأنّ الله متكلّم، وأنّه خاطب الملائكة، وآدم، وموسى، وعيسى، والسموات و الأرضيين، والبحار والجبال. ومراجعته إيّاهم تدلّ على كلامه، تبارك وتعالى! وأنّ قول رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم!- وأصحابه، والتابعين له بإحسان، غير مخالف للقرآن، بل موافق له، مفسّر له في جميع ما وصفوا وحدّثوا وذكروا.

فزعمت الجهميّة أنّ الله لم يكلّم موسى، فكفرت لجحودها كلامه لموسى. وقد بيّن الله ذلك في كتابه، فقال: «تلك الرسل، فضّلنا بعضهم على بعض، منهم من كلّم الله»[5]... فأخبر أنّ منهم من كلّمه، ومنهم من لم يكلّمه، فأوحى إليهم بلا كلام. وقال: «ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلّم

1 - اقتباس من قوله: «ونحن اقرب إليه من حبل الوريد» (سورة ق 50 الآية 16).

2 - بالأصل: أمرنا. انظر التعليق التالي.

3 - سورة النحل 16 الآية 40. وو ردت في القرآن آية أخرى شبيهة بهذه وهي: إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (سورة يس 36 أية 82). ولقد اشتبهت هذه الآية بالسابقة على المؤلّف، فعوّض «قولنا» بأمرنا.

4 - سورة البقرة 2 الآية 75، وبقيّة الآية: ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

5 - سورة البقرة 2 الآية 253.

الله موسى تكليما»[1]. قال: خصوصيّة. ولو كان الأنبياء في الوحي سواء، لم يكن ثمّ خصوصيّة. ولو كان خلق كلاما، فكلّمه ذلك الكلام، كما يقول الجهميّة، لم يكن لموسى فضل، لأنّ الأنبياء كلّهم مكلّمون [2]بالوحي والرسالة. ولم يكن يجوز للكلام الذي خلق أن يقول:» إنّني أنا الله، لا إله إلاّ أنا فاعبدوني»[3]. ولا يجوز هذا الكلام إلّا لله ربّ العالمين، هو الذي تكلّم به ونطق به. وإن زعموا إنّه مخلوق، لزمهم أن يكون هذا الخلق ادّعى الربوبيّة من دون الله، وأنّ موسى عبد الخلق من دون الله، وقد عصم الله الرسل و الأنبياء عن الكفر و الكذب، وهذا كفر بالله. ولو كانت كما قالوا، لكانت تكون: «يا موسى... إنّه هو الله لا إله إلاّ هو[4] فاعبده، وأقم الصلاة لذكره»، ولم تكن: يا موسى... إنّني[5]أنا الله...

ففي هذا بيان و دلالة، وكذبت الجهميّة على الله، وقالوا قولا عظيما.

[ما أنكرت الجهميّة من رؤية الربّ.]

أنكرت الجهميّة أن يكون الله يرى يوم القيامة، يراه المتّقون[6] وأولياءه في الجنّة. فلم يزل يملي لهم الشيطان حتّى جحدوا قول الله: « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة»[7]. وقوله : « تحيّتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجرا كريما[8].» وقوله : في مقعد صدق عند مليك/ مقتدر[9] ». وقوله : «يوم التلاق[10]»، يوم يلتقي الخالق والمخلوق. فقالوا: لا يراه أحد. فجحدوا - و الله!- فضل كرامة الله التي أكرموا بها من النظر إلى وجهه، ونظرته إيّاهم، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فهم بالنظر

1 - سورة النساء 4 الآية 164.

2 - بالأصل: كلّها مكلّمين.

3 - سورة طه 20 الآية 14. وبقيّة الآية: وأقم الصلاة لذكري. وقد وردت هذه الآية محرّفة بالأصل على هذه الصورة: «إنّي أنا الله ربّ العالمين فاعبدني.» ذلك أنّ هذه الآية قد اشتبهت على المؤلّف بآية أخرى هذا نصّها:»... يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين؛ وان ألق عصاك...» (القصص 28 الآية 31-30) وسيتكرّر هذا الالتباس فيما يلي ص 21 تعليق 4.

4 - بالأصل: «إنّه هو الله ربّ العالمين...» وهذا تحريف ناتج عن الالتباس الذي بيّناه في التعليق السابق. وعبارة «يا موسى» ليس هذا محلّها، وانّما تقدّمت في آية 11 من نفس السورة، ولذا فصلناها بنقط متتابعة.

5 - في الأصل: إنّي؛ وذلك ناتج عن الالتباس الذي بيّناه في التعليقين السابقين.

6 - بالأصل: المىمں (هكذا بدون نقط).

7 - سورة القيامة 75 الآية 23-22.

8 - سورة الأحزاب 33 الآية 44.

9 - سورة القمر 54 الآية 55 وهي آخر أية في السورة.

10 - سورة غافر 40 الآية 15.

إليه ينضرون. [وعـ]ـد ربّ السماء و الأرض ليجعلنّ رؤيته يوم القيامة للمخلصين له ثوابا، وينضّرنّ[1] وجوههم دون المجرمين، وتَفْلُجُ[2] بها حجّتهم على الجاحدين، جهم وأصحابه، فهم يومئذ عن ربّهم محجوبون، لا يرونه كما زعموا أنّه لا يرى، ولا يكلّمهم كما زعموا، ولهم عذاب عظيم. وكيف لم يعتبروا بقول الله: «كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون»[3].

وقال المسلمون: يا رسول الله! هل نرى ربّنا ؟ وذلك قبل أن ينزّل الله «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة.» قال رسول الله: هل تُصادّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟-قالوا: لا -وقال: فهل تصادّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟- قالوا: لا- قال: فإنّكم ترون ربّكم يومئذ كذلك. فأنكروا النظر إليه وردّوه، افتياتا[4] على الله ورسوله وترك التسليم لقوله، إذ[5] قالوا: لا يمكن النظر إليه إلّا بمعرفة منه، ولا تقع المعرفة إلاّ على محدود. وقاسوا خبر الغيب من أمر الله، وما اخبر به رسوله أن يكون في الآخرة، بما شاهدت عقولهم، فحملوا ذلك على ما أدركوا وشاهدوا. وقد بَايَنَ الخالق من أمر الآخرة، للمخلوقين، أَمْرَ الدنيا، مباينة عَجَّزَتْ عنه الأوهام، وحسرت عنه العقول، من وصفه ما وصف به في الجنّة، وما فيها، وما اعدّ الله لأهلها. أسأل الله الجنّة برحمته.

فقال بعض العلماء: إنّ أهل الجنّة يرون الله جهرا، وقال بعضهم: كما يرون الهلال. وقال رسول الله -صلّى الله عليه/-: أفضل أهل الجنّة منزلة من ينظر في وجه الله كلّ يوم مرّتين. وقال رسول الله: إذا رأيت الله خررت ساجدا. وقال بعض العلماء: يحقّ على من نظر إلى الله أن يَنْظُرَ[6] وجهه. مع نحو أكثر من ثلاثين حديثا نقلتها الرواة على[7] نحو ما وصفت، اكره التطويل لها في الحجّة. وفي هذا غُنْيَة، وكفاية و بيان، لمن[8] أراد الله هداه.

وأنّ الأبصار لم تدرك الله في الدنيا لأنّه خلقها أبصار الفناء، فلا تقوى على النظر إليه، لا مؤمن ولا كافر. فإذا خلق لها أبصار البقاء، نظر إليه أهل الجنّة، فقويت على

1 - بالأصل: وينضرته.

2 - تفلج = تفوز.

3 - سورة المطفّفين 83 الآية 15.

4 - بالأصل: اقتيابا وقد ورد في اللسان (ج2 ص 70-69) ما نصّه: « وكلّ من احدث دونك شيئا فقد فاتك به، وافتات عليك فيه... وافتات عليه إذا انفرد برأيه دونه في التصرّف فيه.»

5 - في الأصل: إنّ.

6 - بالأصل: سطر (بدون نقط)، ويمكن أن تقرأ: ينظر.

7 - في الأصل: على ما نحو ما ...

8 - في الأصل: لم.

النظر إليه، لقول الله: وجوه يومئذ ناضرة - ناعمة- إلى ربّها ناظرة - ينظرون إلى الله- وهو غاية [إ]كرامه أهل الجنّة. وحجب الله أبصار أهل النّار عن النظر إليه، حين ركّب فيها نور البقاء، فقال: كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون.

وأنكرت الجهميّة أن يكون الله - تبارك وتعالى!- تجلّى للجبل. ومن أنكر هذا فقد كفر. حين قال موسى: «ربّ أرنّي انظر إليك. قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فان استقرّ مكانه فسوف تراني. فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا «(فقالت العلماء: تعقّر بعضه في بعض، فهو يتجلجل في الأرض، يسيخ إلى يوم القيامة) «وخرّ موسى صَعِقا. فلمّا آفاق قال: سبحانك تُبْتُ إليك (أن أسألك الرؤية[1] في الدنيا) وأنا أوّل المؤمنين»[2]. فإنّه لا يرى عند احد في الدنيا. والتجلّي أن يتجلّى حتّى ينظر إليه. مع نحو من عشرين حديثا على هذا النحو، ممّا بلغني سوى ما لم يبلغني[3].

[الردّ على إنكارهم أنّ الله يسمع ويرى]

وأنكرت الجهميّة أن يكون الله يسمع ويرى. وقد قال الله - تبارك وتعالى!- « لقد سمع - الله قول الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء»[4]. وقال: «إنّني معكما اسمع

1 - في الأصل: الرؤيا، وهو ما يراه النائم في المنام.

2 - سورة الأعراف 7 الآية 143. وقد تخلّلت الآية شروح من وضع المؤلّف.

3 - قضيّة الرؤية، كقضيّة خلق القرآن، شغلت الفكر الإسلامي شَغْلاً كبيرا، فلم يكد يخلو منها مصنّف في الحديث ولا كتاب تفسير، ولا مؤلّف في الكلام. تحيل على عزّة محمد عبد المنعم زايد، رؤية الله تعالى بين المثبتين والنافين (رسالة ماجستير في العقيدة والفلسفة الإسلامية)، ط.مكتبة الاستقامة، عمّان، 1980. بصورة عامّة فقد أثبتها أهل الحديث والسنّة عموما؛ وأبطلها الجهميّة وعلى إثرهم المعتزلة والشيعة الإمامية؛ وبحث لها الأشاعرة عن حلّ وسط. وتركّز النقاش حول الآية 143 من سورة الأعراف. ولكنّ هذا خلفيات في الكتاب المقدّس. نقرأ في سفر الخروج:» ثمّ صَعِدَ موسى وهارون وناداب وأبيهم وسبعون من شيوخ إسرائيل* ورَأَوْا إِلَهَ إسرائيل وتحت رجليه شِبْهُ صَنْعَةٍ من العقيق الأزرق الشفّاف وكَذَاتِ السماء في النقاوة* ولكنّه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا و شربوا» (الإصحاح 24: 11-9). لكنّ ما ورد في نفس السفر (الإصحاح 33: 23-18) يناقض ما سبق حيث نقرأ: «فقال ارني مجدك* فقال أُجِيزُ كلّ جُودَتِي قُدَّامك. وأنادي باسم الرب قُدَّامك. وأَتَرَاءَفُ على من أتراءف وارحم من ارحم. وقال لا تقدر أن ترى وجهي. لأنّ الإنسان لا يراني ويعيش. وقال الربّ هو ذا عندي مكان. فتقف على الصخرة. ويكون متى اجتاز مجدي أنّي أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتّ اجتاز* ثمّ ارفع يدي فتنظر ورائي. وأمّا وجهي فلا يُرَى.»
وقد قام لويس غاردي بدراسة مقارنة بين الإسلام و المسيحيّة فيما يخصّ هذه القضيّة نحيل عليها:
.Louis Gardet, Dieu et la Destinée de l›homme; Vrin, Paris, 1967,p.338-346

4 - سورة آل عمران 3 الآية 181.

واري»[1]. وقال: «قد[2] سمع الله قول التي تجادلك في زوجها»[3]. مع نحو من خمسة عشر موضعا/ في القرآن ممّا حفظت سوى ما لم أحفظ[4] على هذا النحو.

[التحذير من الدجّال الأعور]

وكان النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم!- حذّر أمّته الدجّال[5]، فقال: إنّه أعور، وليس نبيّكم بأعور. مع عشرة أحاديث بلغتني سوى ما لم يبلغني في نحو هذا.

[عود إلى الردّ على قولهم بخلق القرآن]

قال ابن عون: زعمت الجهميّة أنّ القرآن مخلوق.

فيقال لهم: ربّنا - تبارك و تعالى!- خلقه ثابتا فيه أو باينا منه ؟ فان قالوا «ثابتا فيه» فقد كفروا بالله العظيم. وكذلك إذا قالوا «باينا منه». لأنّهم إذا قالوا «خلقه ثابتا فيه»، فقد زعموا أنّهم يعبدون الخالق و المخلوق. وإن قالوا « باينا منه». فقد زعموا أنّه لم يتكلّم به قيل خلقه باينا منه، وهذا ردّ للقرآن، وردّ لما قال الله، وردّ لما قال جبريل و محمد- صلّى الله عليهما وسلّم!

ويقال لهم: اخبرونا عن ربّنا- تبارك و تعالى!- خلق فتكلّم، أو تكلّم فخلق ؟ فان قالوا «تكلّم فخلق»، فقد صار القرآن غير مخلوق، و الخلق كلّه بعد القرآن. وإن قالوا «خلق فتكلّم»، فقد حلّت دماؤهم، وكفروا بالله العظيم، وعارضوا القرآن بردّ[هم] لقول الله : «إنّما قولنا[6] لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون»[7]. لأنّ الله - تبارك وتعالى!- خلق خلقه بقوله كن.

ويقال لهم في هذه الآية: ...» يا موسى ... إنّني أنا الله، لا إله إلاّ أنا، فاعبدني وأقم الصلاة لذكري»[8]. أمخلوق ذلك؟ فان قالوا:» نعم «، فقد افتروا على الله،

1 - سورة طه 20 الآية 46.

2 - في الأصل: لقد.

3 - سورة المجادلة 58 الآية 1.

4 - في الأصل: تحفظ، وهو أسلوب ما زال حيّا في اللّغة العاميّة، ولا شكّ أنّه كان رائجا أيضا في زمان المؤلّف.

5 - في الأصل: وكان النبيّ حذّر أمّته من الدجّال صلّى الله عليه وسلّم فقال ...

6 - في الأصل: أمرنا. وهو خطأ قد سبق مثله. انظر ص 18 تعليق 6-5، ما لم تكن قراءة.

7 - سورة النحل 16 الآية 40.

8 - وردت هذه الآيات بالأصل محرّفة على هذه الصورة: « يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين فاعبدني وأقم الصلاة لذكري.» والنصّ الكامل الصحيح هو: فلمّا أتاها نودي يا موسى (11) إنّي أنا ربّك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طوى (12) وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي (13) إنّني أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى (14) (سورة طه 20). ولقد وقع المؤلّف في نفس هذا الخطأ المتكرّر فيه دلالة على أنّه كان

وقالوا عظيما من القول، لأنّهم زعموا أنّ الخلق ادّعى الربوبيّة من دون الله، حين يقول: إنّني[1] أنا الله. وقد قال الله: «ومن يقل منهم[2] إنّي إله من دونه فذلك نَجْزيه جهنّم»[3]. وزعموا أنّ موسى عبد الخلق من دون الله، وقد عصم الله الرسل و الأنبياء عن الكفر و الكذب./ ولو كان، كما يقول الزنادقة الملحدون، إنّه مخلوق، لكانت تكون:» يا موسى... إنّه هو الله، لا إله إلاّ هو[4] فاعبده وأقم الصلاة لذكره.» ولا يكون شيء يقول: إنّني[5] أنا الله، غير الله، تبارك وتعالى[6]!

قال ابن عون: وقد احتجّ قوم من الجهميّة، فزعموا في قول الله: «إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب»[7]، فقالوا: فالقرآن مخلوق، لأنّ الله يقول: «وكلمته ألقاها إلى مريم»[8]. فشبّهوا على أهل الضعف بهذا. فيقال لهم: الكلمة التي ألقاها الله إلى مريم، هي عيسى ؟- أوبها خلق عيسى ؟ فإن قالوا:» بها خلق عيسى»، فقد زالت الكلمة عن الخلق[9]. وإن قالوا:» هي عيسى»، ليصلوا إلى حجّة أنّه[10] مخلوق، تَبَعّدَت عنهم الحجّة، لأنّ الحجّة تلزمهم[11]. لأنّ عيسى إذا مات، زالت الكلمة من القرآن بموت عيسى. وهذه الكلمة، بعد موت عيسى، ثابتة في القرآن!

وقد أجمع أهل العلم و العرب أنّ كلّ شيء من الكلام ليس بينه[12]واو فهو صنف واحد. فإذا كان بينه[13]واو، زال المعنى [الواحد] بالواو، فكان صنفين مفترقين بها. قال الله: ألا له الخلق و الأمر (فجمع «الخلق» كلّهم بالكلام الأوّل، ثم قال «والأمر»،

يلقي درسه اعتمادا على ذاكرته، من دون رجوع إلى المصحف، وكتابه بلغنا على الصورة التي اكتساها أثناء التدريس، بدون مراجعة ولا تنقيح.

1 - في الأصل: إنّ.

2 - في الأصل: منكم، وهو خطأ.

3 - سورة الأنبياء 21 الآية 29.

4 - في الأصل: « إنّه هو الله ربّ العالمين فاعبده.» انظر التعليق رقم 4 وكذلك ص1 تعليق 3-2.

5 - في الأصل: إنّي.

6 - قد سبق هذا الاحتجاج ص 13.

7 - سورة آل عمران 3 الآية 59، وبقيّة الآية: « ثمّ قال له كن فيكون ».

8 - سورة النساء 4 الآية 171.

9 - أي في هذه الحالة الكلمة غير مخلوقة، إذ هي خالقة. وتبعا لذلك فالقرآن، وكلام الله عامة، غير مخلوقين.

10 - أي القرآن.

11 - أي أنّ الحجّة تكون عليهم، إذ أنّ عيسى مات، وكان ينبغي أن تزول الكلمة بزواله لو كانت هي هو. لكنّ هذه الكلمة باقية لا تفنى، وفي ذلك دلالة أنّ الكلمة ليست عيسى، وإنّما بها خلق عيسى.

12 - بالأصل: بينهم.

13 - بالأصل: بينهم.

القرآن[1])، تبارك الله ربّ العالمين[2]. فلو كان القرآن مخلوقا، لكان «ألا له الخلق الأمر»، ولم يكن:» ألا له الخلق والأمر». ألا بلغهم[3] أنّه يقول في كتابه: «عسى ربّه، إن طلّقكنّ، أن يُبْدِله أزواجا خيرا منكنّ، مسلمات مؤمنات قانتات تائبات/ عابدات سائحات ثيّبات»[4]. فافهم- يرحمك الله!- حين لم يكن بينهم واو. فلمّا أن قال - تبارك و تعالى!- «وأبكارا»[5]، فدلّ على أنّ البكر غير الثيّب بالواو. ولو كانت البكر و الثيّب صنفا واحدا لكانت «ثيّبات أبكارا.»

قال ابن عون: وإنّما مالت الجهميّة إلى أنّ القرآن مخلوق [لأنّهم] أرادوا الله بكفرهم به - تبارك و تعالى!- ولم يريدوا[6] القرآن. وخافوا إن يكفروا بالله مواجهة فيقتلون، فزعموا إنّ القرآن مخلوق، وعزّة الله مخلوقة، وقدرة الله مخلوقة، وصفات الله مخلوقة، و أسامي الله مخلوقة. وزعموا أنّ الله - تبارك و تعالى!- عَدَمٌ، كالأصنام والأوثان التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تدفع تَحْتَ ناحتها و ما يُعْمَلُ بها. وقالوا: إنّه من عبد حجرا فقد عبد الله[7]، وهذا قول من ليس له في الإسلام حظّ ولا نصيب[8].

قال ابن عون: فقد زعموا بقولهم إنّ القرآن مخلوق أنّه لولا هذا الكلام الذي خلقه - تبارك و تعالى!- لم يعرف ربّنا، ولم ينفّذ له قول، ولا عبده عابد، ولا كان له

---

1 - أي أنّ القرآن هو الأمر، وهو خلاف الخلق، وهذا يخرج به عن أن يدخل في عموم الخلق و يكون مخلوقا.

2 - سورة الأعراف 7 الآية 54.

3 - كلمة محيت بحيث لا تقرأ إلاّ توهّما.

4 - سورة التحريم 66 الآية 5.

5 - بقيّة الآية السابقة.

6 - بالأصل: يردوا.

7 - قد سبق هذا ص 18.

8 - هذا تشويه واضح لآراء الجهميّة. والعلّة فيه هو أنّ الجهميّة، لشدّة حرصهم على إبراز التنزيه، جُرّوا إلى نفي الصفات، فرموا بالتعطيل، وإفراغ متصوّر الإله من كلّ مفهوم يقرّبه من عقول عباده، فجعلوا منه عَدَمًا.
ولا شكّ أنّ الجهميّة بدورهم رموا أهل السنّة بالتجسيم، وجعلوهم كعبّاد الأصنام و الأوثان، لأنّهم في نظرهم من الحشوية الذين يجعلون لله أعضاء، وموضعا، وكرسيا يجلس عليه، فيصوّرونه كصنم.
ونرى هنا ابن عون يقلب التهمة، ويقذف بالكرة في صفّ الجهميّة، ويتّهمهم بأنّ الله في نظرهم «عدم كالأصنام». وواضح أنّ العدم ليس من نعوت الأصنام، إذ هي بالضدّ محسوسة ملموسة. لكنّ كِلاَ الفريقين كان حريصا على اتّهام الخصم بالوثنيّة.
وهكذا فالجهميّة يتّهمون أهل السنّة بالوثنيّة لأنّهم في نظرهم مشبّهون، مجسّمون، حشويون. وأهل السنّة هنا يوجّهون نفس الاتّهام للجهميّة لأنّهم يعتبرونهم معطّلين، جعلوا الله أشبه شيء بعدم لا ينفع ولا يضرّ كالأوثان. ولم يحاول كلّ من الطرفين أن يفهم آراء الطرف المقابل على وجهها.

نبيّ مرسل إلى أحد من خلقه، ولا أمر ولا نهي، إلاّ بهذا الخلق. فقد زعموا إنّه إلى خلقه أحوج من خلقه إليه.

[ردّ قولهم أنّ أسامي الله وصفاته مخلوقة]

وقال ابن عون - في قولهم « إنّ أساميه مخلوقة «-: فزعم المعطّلة أنّ الله، في وقت من الأوقات، كان غير الله، حتّى خلق لنفسه أسماء سمّى بها نفسه. فيقال لهم: فما تعبدون إذا زعمتم أنّ الله مخلوق، وأسماءه مخلوقة ؟- فقالوا:» نعبد الذّات»، يريدون[1] البدن[2]. فأتوا برأي من رأيهم لم يمض به كتاب، ولا سنّة نبيّ، ولا قول قائل ممن مضى. فاحذروهم وحذّروهم الناس، لأنّ أسد بن موسى السنّي - رحمه الله!- قال: المتكلّم فيما سكت الله عنه، كالجاحد ما تكلّم الله به.

قال ابن عون: ربّنا - تبارك و تعالى!- لم يزل بصفاته، ولم تزل صفاته به، ولم يحتج إلى شيء من خلقه ثمّ به. قال ابن عون، قال أسد: لَيَجِقُّ[3] إذن في غير الله/ من أن يجعل لهم مشيئة يشاءون[4] بها لأنفسهم ما يشاءون[5].

قال ابن عون: وقد بيّن الله أمرهم في كتابه، فقال - تبارك و تعالى!- « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير»[6]. فإذا قرؤوا: « الرحمان على العرش استوى»[7]، قالوا: أعوذ بجلال الله! سبحان الله! إنّما هو استولى - يريدون ملك- وليس هو استوى. فيعظّمون الله بالكفر به، تبارك و تعالى!

1 - بالأصل: يردّوا.

2 - سوء فهم واضح، أو تحريف مقصود، لآراء الجهميّة الذين بالضدّ عرفوا بشدّة حرصهم على التنزيه ونفيهم عن الله أن يكون جسما.

3 - بالأصل: للحف. والمقصود هو أنّه لو صحّ ما زعمت الجهميّة، واحتاج الله إلى شيء من خلقه به يتمّ، لجاز أن يكون للمخلوقات مشيئة مستقلّة.

4 - بالأصل: يشوا.

5 - بالأصل: يشوا.

6 - سورة الحجّ 22 الآية 8؛ ولقمان 31 الآية 20. ووردت هذه الآية بالأصل محرّفة على هذه الصورة: «يجادلون في آيات الله بغير علم...» ذلك أنّ هذه الآية قد اشتبهت على المؤلّف بآيات آخرى وهي: «الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ...»(غافر 40 الآية 56-35)؛ «الم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله ...» (غافر 40 الآية 69)؛ «ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا» (غافر 40 الآية 4). وكثيرا ما يقع المؤلّف في مثل هذا الالتباس. انظر ص19تعليق 2؛ ص 21 تعليق4،5، 6.

7 - سورة طه 20 الآية 5.

[خلود أهل البدع في النار]

وقد قال البهلول بن راشد -رحمة الله عليه!- كلّ من في النار يرجو الخروج منها ما خلا ثلاثة: إبليس، وكافر بالله، وصاحب بدعة. فقد أَيِسُوا من الخروج من النار[1].

[لا يقبل الله عمل أهل البدع]

وقد كان بعض من مضى من الأيمّة يقول إذا أصبح: والله ما ادري - يا ربّ!- على أيّ نعمتين ابدأ أشكرك عليها، أن هديتني للإسلام، أو جنّبتني الأهواء ؟ فحار[2] بالنعمتين، اشتبه عليه أيّ النعمتين يبدأ بشكر الله عليها، لأنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم!- قال: لا يقبل الله من أهل البدع صوما، ولا صلاة، ولا صدقة، ولا جهادا، ولا حجّا، ولا رباطا. ومن ردّ على الله سنّته، ردّ الله عليه بدعته.

[لا يبالي من مات على السنّة مهما كانت ذنوبه]

وقال عون - رحمه الله!- لا يبالي من مات على السنّة على أيّ جنب لقي الله، وإن كثرت ذنوبه، وان كانت حشو الأرض. فاستعظمتُ ذلك، وهو يسمع، فقال: أيّهما أكثر، ذنوب الخلق، أو رحمة الله ؟- فقلت له: رحمة الله- فقال لي: فتلك الذنوب كلّها تدخل في سعة رحمة الله، إذا سلم له الإسلام و السنّة[3].

[صفات الله أزليّة]

قال ابن عون: فالله - تبارك وتعالى!- يحتج إلى شيء من خلقه يتمّ به: لا من كلام، ولا من قدرة، ولا من عزّة، ولا من أسامي. صفاته هذه أزليّة، لم تزل به ولم يزل بها[4]./ لم يكن شيء منها مخلوقا، فيفنى، ولكنّه - تبارك وتعالى!- بها في الدنيا، وبها في الآخرة، وبها قبل أن يخلق الخلائق إذ كان عرشه على الماء، وبها بعد أن تفنى الخلائق.

[تفرّعت الزندقة عن بشر بن غِيَاث والفرّاء]

وإنّما قسمت الزندقة على رجلين. فرجل بالمشرق، ويقال له بشر بن غِيَاث[5] اليهودي الصبّاغ. فمنه افترقت هذه الزندقة في جميع أفق المشرق وأمصاره. ونصف

---

1 - سبق هذا ص 12.

2 - بالأصل: فصارب النعمس (هكذا بدون نقط).

3 - سبق هذا ص 12.

4 - هذا تكرير وتأكيد لما سبق ص 23.

5 - بالأصل: عشوه. ثمّ أصلح الناسخ بخطّه هذه الكلمة فوضع فوقها: غياث. وفيما يخصّ بشر بن غياث المريسي انظر دائرة المعارف الاسلاميّة تحت اسمه.

الزندقة بالمغرب وأمصاره، نقل ذلك سليمان الفرّاء بن أُزْبان بن مَرْتينه[1] المنّاني[2]، أصل أوّليّه في المنّانية. وأبَى الله - تبارك و تعالى!- أن يجعل هذين الرجلين يقودان دين الله، ودين محمد، إلى خلقه، فأبان أمرهما.

[عود إلى ردّ القول بخلق القرآن]

وقد تكلّمت الجهميّة فقالوا: القرآن شيء، أو غير شيء ؟- فيقال لهم: شيء- فيقولون: لا يكون شيء إلاّ مخلوق- فيقال لهم: الله شيء، أو غير شيء ؟- فان قالوا: « غير شيء»، فقد نطق التنزيل بغير ما قالوا، لأنّ الله يقول: قل أيّ شيء أكبر شهادةً ؟ قل الله[3]... وإن قالوا: « شيء»، قيل لهم: فهو شيء غير مخلوق، والقرآن شيء غير مخلوق. وقد فسّرنا ذلك في جميع صفاته[4]، تبارك وتعالى!

قال ابن عون: وهذه الافراق إنّما اختلفت في أهوائها، فلم تسعها فرقة إلاّ الجهميّة. فاجتمع جميع الافراق على أنّ القرآن مخلوق، واليهود والنصارى يقولون بقولهم، وجميع من قال بالأرجاء وبالرأي.

[ما قالت المرجئة و الردّ عليهم]

فالمرجئة تقول: إنّه مَنْ قال « لا إله إلاّ الله » دخل الجنّة، وإن ارتكب جميع الذنوب[5].

فيقال لهم: ما تقولون في رجل مقرّ بالتوحيد، واقف عن العمل، ممّن قد تمّ إيمانه عندكم، شهد عند[6] قضاتكم بشهادة ؟ أكنتم تنفّذون القضاء بها، أم تحتاجون إلى من يزكّيه فيما كان من قليل الشهادة وكبيرها ؟- فإن قالوا: نقطع شهادته دون المزكّين، فقد خالفوا الأمة، لأنّ حكم ذلك قد نُفِّذَ من صدر هذه الأمّة ومن بعدها إلى يوم القيامة بالمزكّين. وان قالوا: لا ينفّذ الحكم بشهادته في قليل الأمر وكبيرة إلاّ بمزكّين، فيأخذهم/ في لَدَدِ الحجّة[7].

1 - قد ضبط الناسخ العلمَين بالاعجام و الشكل. وفيما يخصّ الفرّاء انظر فصلنا: Du nouveau sur l'Itizal en Ifriqiya au IXe siècle dans Revue Tunisienne de Sciences Sociales, n° 40-43 (Avril 1975), p.49-54.

2 - يذكر الأشعري (مقالات، ص332، 336/ 337، 349) أنّ المنانيّة « طائفة من الثنويّة » انظر أيضا ابن النديم، الفهرست، ص467.

3 - الأنعام 6 الآية 19.

4 - الضمير يعود على الله.

5 - هذا الموقف يذكّر بموقف لوتر (1483-1546) في المسيحيّة.

6 - بالأصل: عن.

7 - هذه الفقرة لا تخلو غموض في ارتباط التفكير ودلالته. ويبدو أنّ المؤلّف يرى أنّ الأعمال تقوم شرعا

وإنّما فضّل الله - تبارك وتعالى!- أهل التوحيد، فقدّمهم به، وقرن تمام التقديم لهم بالعمل في آي كثير من كتاب الله. وقد قالت العلماء من أهل المدينة: قول وعمل أخوان شريكان. فمن قال ولم يعمل، فقد كفر. ومن عمل ولم يقل، فقد كفر. وهذا تفسيره على الجحد بأحدهما، وليس ذلك على التفريط ولا على التضييع[1]، لأنّ الله يقول في كتابه: «لست منهم في شيء، إنّما أمرهم إلى الله ثمّ ينبئهم بما كانوا يفعلون»[2].

ما قالت الشكوكيّة والردّ عليهم

[الشكوكيّة لا يقطعون لأنفسهم بالإيمان]

وزعمت الشكوكيّة أنّهم لا يقطعون على المؤمن بالإيمان. ويقولون:» نرجو أن نكون مؤمنين»، « ونحن مؤمنون إن شاء الله.» ولم[3] يثبتوا لأنفسهم الإيمان، وشبّهوا على أهل الضعف، فيقولون: أمؤمن مستكمل أنت ؟- فإن قلت: لا- قالوا: فارجع إلى ربّك! نرجو أن تكون مؤمنا، ولا تقطع بالإيمان لنفسك عن اليقين. فأوهموا الناس.

[أهل السنّة يقطعون بالإيمان]

فأهل السنّة لا يقولون: «مؤمن مستكمل»، ولا «نرجو أن نكون مؤمنين» بل نقطع بالإيمان لأنفسنا، لأنّ الله سمّانا به، فنحن نقطع بشهادة ربّنا لنا: وادع إلى ربّك

مقام المزكّين بالنسبة للشهادة « أن لا إله إلاّ الله.» فهذه الشهادة لا تقبل، ولا ينفّذ بها حكم لصاحبها -كما هو الشأن في الشهادات عند القضاة- إلاّ إذا أُشْفِعت بما يزكّيها من الأعمال، التي لها دور المزكّين فقها. وكلّ تفكير المؤلّف مبني في هذه الفقرة على قياس فقهي: فالشهادة بالتوحيد، دون تزكيّة الأعمال، لا تقبل عند الله - وهو قاضي القضاة - كما لا تقبل في الدنيا الشهادات عند القضاة بدون تزكيّة المزكّين ولا يخلو موقف المرجئة من هذه القضيّة أن يكون: إمّا موقف إنكار وجوب المزكّين لقبول الشهادات، فيخرجون بذلك عن إجماع الأمّة. وإمّا موقف إقرار، فيكون عندها إنكارهم لضرورة الأعمال لثبوت الشهادة بالتوحيد من باب التعنّت واللّدَدِ في إنكار ما يلزمهم منطقيّا.

1 - بالأصل: النصبع (بدون نقط). ويقصد المؤلّف أنّ هذا الحكم - حكم الكفر - إنّما ينطبق على من جحد وجوب القول أو وجوب العمل، لا على من اقرّ بوجوب ذلك، وكان مفرّطا، مضيّعا، ومهملا لواجباته الدينيّة. وقد سبق أن لاحظ المؤلّف - على لسان أبيه عون - أنّ العصاة من أهل السنّة، وإن كانت ذنوبهم «حشو الأرض»، فإنّهم لا يقنطون من رحمة الله. بينما أهل البدع، بما في ذلك المرجئة، فإنّ حكمهم حكم الكفر، ومآلهم التخليد في النار. أنظر ما سبق ص 12، 23، 24 وانظر فصلنا:
Al-Irğa, au de la théologie du salut à Kairouan au au IXe siècle, dans Akten des VII. Kongresses für Arabistik und Belamwissen schoft (Göttingën,105-22,Août 1974) p 48-363.

2 - سورة الأنعام 6 الآية 159. وهذا أوّل الآية : أنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم.

3 - كرّرت بالأصل.

انّك لعلى هدى مستقيم[1].

[ردّ قول الشكوكيّة بأقيسة فقهيّة]

ويقال لهم: اخبرونا عن رجل مؤمن، قتل خطأ [رجل] ممن يسفك الدماء، ويستحلّ[2] الأموال و الفروج، هل فيه رقبة مؤمنة ؟- فان قالوا: «لا»، قيل لهم: فقد خالفتم الأمّة. وان قالوا: «نعم»، قيل لهم: فمن أين تشكّون في إيمانكم، وقد اوجب الله فيه الرقبة ؟ يقول الله - تبارك وتعالى!- وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلاّ خطأ. ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة[3]. ولم يذكر - تبارك وتعالى!- عدالته في الإيمان ولا سوء حاله.

[ثمّ][4] أرأيتم لو كان رجل قتل رجلا غيره، فوجبت عليه رقبة مؤمنة، فأراد شِرَاءها ليعتقها عمّا وجب عليه، فاشتراها فاعتقها، وكان سيّء الحال فيما بينه وبين الله- هذا المَعْتُوقُ/- في ارتكاب الكبائر و المعاصي، هل كان يجزي ذلك في رقبة وجبت عليه خطأ، أم يحتاج إلى تزكيّته قبل أن يشتريه فيما وجب عليه من هذه الرقبة ؟ فإن قالوا: «لا يجزيه»، قيل لهم: فقد خالفتم الأمّة. وإن قالوا: «يجزيه من غير أن يزكّى»، قيل لهم: من أين تشكّون في إيمانكم إذا كان هؤلاء تجب[5] فيهم الرقاب، ويجزون[6] في الرقاب ؟ فتأخذهم الحجّة.

[الإيمان صنف واحد والمؤمنون أصناف]

قال ابن عون: وإنّما الإيمان بمنزلة شجر الزيتون. فواحدة بالثمر الكثير، والأخرى زبّوج[7] لا قدر لها، ولهما اسم واحد يجمعهما. فلو حلف أنّ ٱلدنيّ منه ليس بزيتون، أو الكريم منه ليس بزيتون، حنث. ولا يخرج أيضا جيّده ولا رديئه من صنفه إلى شجر صنف غير صنفه. وكذلك الضان من الغنم. يكون فيها الكبش الذي له القدر بالثمن الكبير، ويكون أدناها العَجِفُ الذي لا يحتاج إليه ولا قيمة له. فلا يتغيّر واحد منهما

---

1 - سورة الحجّ 22 الآية 67. وبالأصل ما نصّه: «وإنّهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم». وعبارة «وإنّهم بين ذلك» ليست من القرآن في شيء. ولقد سبق أن لاحظنا أنّه كثيرا ما يشتبه الأمر على المؤلّف في شأن الآيات التي يوردها. انظر ص 19 تعليق 2؛ ص21 تعليق 4، 5، 6؛ ص23 تعليق 5، 7؛ ص24 تعليق 1.

2 - بالأصل: يستحيل.

3 - سورة النساء 4 الآية 92.

4 - أضيفت الكلمة توضيحا للسياق، لأنّ المؤلّف يورد حالة ثانية شبيهة بالأولى لكنّها ليست هي عينها. فالحالة الأولى تهمّ حكم المقتول خطأ، والحالة الثانية تهمّ حكم الرقبة المحرّرة.

5 - إشارة إلى الحالة الأولى - حالة المقتول خطأ - وقد بسطها المؤلّف في الفقرة السابقة.

6 - إشارة إلى الحالة الثانية - حالة الرقبة المعتوقة - وهي موضوع هذه الفقرة.

7 - تطلق في اللّهجة العاميّة التونسية اليوم على الزيتون البرّي الذي لا يؤكل ولا يعصر ثمره.

من صنفه إلى غير صنفه.

فإنّما الأديان جمعت محسن هذه الأمّة ومسيئها. فأبو بكر- رحمة الله عليه!- بعد نبيّنا، كانت فيه الفضائل التي لم يقم بها عمر، واقرّ عمر بذلك له. وكانت في عمر بعده فضائل زاد [بها] على عثمان. وكان في عثمان فضائل شهدها من رسول الله[1]، لم تكن في عليّ - رضي الله عنه!- وكان عليّ مقرّا بها له. وكانت في عليّ فضائل تقدّم بها على معاوية بن أبي سفيان، رحمهم الله! ثمّ جرت فضائل أصحاب رسول الله، ثمّ التابعين، وتابعي التابعين، وتابعي [تابعي] التابعين. ثمّ لم يزل الأمر ينتقص في هذه الأمّة حتّى لزم قوم الفرائضَ بلا نوافل. وكان أيضا معهم قوم تركوا الفرائضَ[2] والنوافل، فكان ذلك استخفافا منهم لدينهم. وكلّ مؤمن.

فانظر فيما وصفت لك من الشجر والغنم، وما وصفت لك من فضائل/ أصحاب رسول الله، حتّى انتهى إلى من عَرِيَ[3] من دينه إسفافا، لا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا، وهو مقرّ بالتوحيد. فقد جمعتهم الدّار باسم الإيمان كما وصفت لك من غيرهم.

وقد عاتب الله بعض المؤمنين، وأثنى على بعضهم، ولم يخرج صنفا منهم من الإيمان. فقال- تبارك وتعالى!- «[يا أيّها] الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا[4]؛ يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون[5]؛ وقال: ألم يَأْنِ للذين[6] آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله»[7]؛ وقال: «يا أيّها الذين آمنوا لا تخونوا الله و الرسول وتخونوا أماناتكم»[8]؛ وقال: « يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء، تُلْقُون إليهم بالمودّة، وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ، يخرجون الرسول وإيّاكم»[9]... وليس كبيرة أعظم عند الله في الإسلام منها. فافهم أنّ الله عاتبهم بالتقصير، ولم يخرجهم من اسم الإيمان، ودعاهم به.

وأثنى على صنف آخر من المؤمنين فقال: « قد افلح المؤمنون، الذين هم في

1 - أورد ابن العماد في الشذرات (ج1ص25) في حديث العشرة المبشّرين بالجنّة ما نصّه على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : «عثمان في الجنّة ورفيقه أ نا.»

2 -بالاصل يلي هذه الكلمة ما نصّه: « نوافل ثمّ كان»، وقد شطب الناسخ على ذلك.

3 - بالأصل: « عدا»، ثم شطّب الناسخ على ذلك وعوّضه من فوق بما أثبتناه.

4 - سورة التحريم 66 الآية 8.

5 - سورة الصّف 61 الآية 2.

6 - بالأصل: للس.

7 - سورة الحديد 57 الآية 16.

8 - سورة الأنفال 8 الآية 27.

9 - سورة الممتحنة 60 الآية 1.

صلاتهم خاشعون»[1]... إلى آخر الآية. وقال: « أولائك هم المؤمنون حقّا، لهم درجات عند ربّهم ومغفرة ورزق كريم» [2]. فنعتهم بأحسن النعت، وأثنى عليهم، ولم يُزِلْ اسم الفريقين من الإيمان. فافهموا - رحمكم الله!- وتدبّروا.

وقد قال [بعض] الملوك - رحمه الله!- في رجل جاؤوا به سكران، فقال لأصحابه: إنّي لأرجو أن يكون غدا عند الله أفضل من [قوم لا يشربون][3] وهم على بدعة، يصومون ويصلّون.

سمعه محمد بن إسحاق الجبلي

(توفي 341/952)

تمّ الكتاب بحمد الله و نعمته[4]*

*** *** ***

1 - سورة المؤمنون 23 الآية 2-1.

2 - سورة الأنفال 8 الآية 4.

3 - بالأصل مقدار ثلاث كلمات محيت، عوّضتها بما يوافق السياق.

4 *- في المخطوط الكلام متواصل بخطّ مختلف. يواصل السامع لكتاب الحجّة من يحي بن عون، أي محمد بن إسحاق الجبلي، بعد إعلانه عن انتهاء الكتاب، فيضيف سماعات ونقول أخرى استطرفها، فأراد إثباتها، وهي عن يحي بن عون (توفي 298/910)؛ والفرات بن محمد (توفي 292/905)، سمع بن عون، وسمع بمصر، وكان مشهورا «بمعرفة الأخبار» وكذلك بالكذب (محمد الطالبي، تراجم أغلبيّة، تونس 1968، ترجمة رقم 92،ص325)؛ وموسى (أبو جعفر الصمادحي، 840-777/225-160، نفس المصدرص 141)؛ وأبو موسى عيسى بن حمدون المؤدب، لم أقف له على خبر.

فهذه السماعات والنقول ليست من كتاب الحجّة، فرأينا أن نفصلها عنه ونضعها في ملحق. وان لم يترك محمد بن إسحاق الجبلي بياضا يفصل بين كتاب الحجّة وما ألحقه به، فذلك لأنّ الرَقّ كان مادة ثمينة يقتصد فيها، بل كثيرا ما يمحى ما كتب عليها ويعوّض بكتابة جديدة عند الحاجة. وهذا ما وقفنا عليه في كثير من المخطوطات العتيقة، وهو ما يُسَمّى « بالطِلْس» (palimpsest) وله مثيله في المخطوطات الغربيّة.